العلم والإيديولوجيا

بين الإطلاق والنسبية

د. حسين علي

مكتبة الفكر الجديد

الشوير

العلم والإيديولوجيا

بين الإطلاق والنسبية

مكتبة
الفكر الجديد

الكتاب: العلم والإيديولوجيا / بين الإطلاق والنسبية
المؤلف: حسين على

جميع الحقوق محفوظة
سنة الطبع ٢٠١١

الناشر:

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان
هاتف: ٠٠٩٦١ ١ ٤٧١٣٥٧ فاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٤٧٥٩٠٥
www.dar-altanweer.com
info@dar-altanweer.com

التنفيذ الطباعي: مؤسسة ديمو برس للطباعة والتجارة بيروت / لبنان

All rights reserved, No part of this publication may be reproduced, stored in a retrival system, or uansmitted in any means, electronic, mechanical, photo, copying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing of the publisher.

مكتبة الفكر الجديد

د. حسين على

العلم والإيديولوجيا

بين الإطلاق والنسبية

مكتبة
الفكر الجديد

تمهيد

لكل علم مقومات ثلاثة: موضوعه ومنهجه والإنسان القائم عليه، وبينما يختلف الموضوع بداهةً من علم إلى آخر، فإن طبيعة المنهج مازالت غير محددة. فهل يتعدد المنهج أم يتوحد؟ بعبارة أخرى هل تتوحَّد تلك القواعد التي يلتزم بها كل عالِم في دروب علمه أياً كان موضوعه أم تتعدد بحسب موضوع علمه؟ ومما زاد الأمر صعوبة أن المنهج قد استُخْدِم للبحث في أمرين مختلفين: للبحث في العلم نفسه والبحث عن الفلسفة الكامنة وراء العلم. ومن ثمَّ جرى فصل العلم عن المناخ الإجتماعي الذي يتواجد فيه، وراج الحديث عن حياد العلم وعدم انحيازه وكأنه يستهدف حقائق مطلقة مجردة ثابتة[1].

فأصحاب الاتجاه الوضعي – مثلاً– يرون أنه لابد للحقيقة العلمية

(١) د. فؤاد مرسي، المنهج بين الوحدة والتعدد – رؤية تحليلية، أوراق ندوة: إشكالية العلوم الإجتماعية في الوطن العربي، المركز القومي للبحوث الإجتماعية والجنائية، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٦١.

مكتبة الفكر الجديد

أن تجيء مستقلة - بقدر المستطاع - عن قائلها، فلا يمازجها شيء من ميوله وأهوائه ونزعاته الذاتية وقِيَمِه التي يقوّم بها الأشياء من حيث خيرها أو شرها، وجمالها أو قبحها؛ فليس لعالِم النفس - مثلاً - حين يصف السلوك الإنساني أن يقول عنه إنه سلوك مستحب أو مستهجن، وليس لعالِم النبات حين يصف زهرة أن يقول عنها إنها زهرة جميلة أو قبيحة؛ كلا وليس للباحث العلمي أن يختار من الشواهد لبحثه ما يخدم رغبة في نفسه أو ما يحقق له مثلاً أعلى يتمناه؛ بل العالِم الحق هو من ينظر إلى الواقع الخارجي المبحوث نظرة منزهة عن كل هذه الجوانب الذاتية[١]. إن الوصول إلى الحقيقة العلمية هو غاية البحث العلمي، والحقيقة العلمية قوامها الموضوعية. والمقصود بالموضوعية التعامل مع موضوع البحث كما هو، أي في استقلال عن آرائنا وعواطفنا. وقد عبر كلود برنار[٢] عالِم الطب التجريبي -

(١) د. زكي نجيب محمود، المنطق الوضعي، الجزء الثاني، مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة الخامسة، 1980، ص 32.

(٢) كلود برنار Claude Bernard عالِم فسيولوجي فرنسي، مكتشف الطب التجريبي، وُلِدَ في الثاني عشر من يوليو عام ١٨١٣ وتوفي في باريس في العاشر من فبراير عام ١٨٧٨.

وهو أحد العلماء الذين شعروا في أثناء بحوثهم العلمية بضرورة إعادة فحص العلم الذي يقومون به لمعرفة أسسه العقلية والتجريبية، وكذلك معرفة صلة العلوم بعضها ببعض، وقيمة القوانين العلمية من حيث يقينيتها ومن حيث هي عنصر من عناصر تفسير الكون بأسره. وقد ضمّن "كلود برنار" آراءه الفلسفية في هذه المشكلات في كتاب له بعنوان "المدخل إلى الطب التجريبي" ولهذا الكتاب ترجمة عربية قام بها

في القرن التاسع عشر- عن هذه الصفة أصدق تعبير في نص يقول فيه: "إن على العالِم أن يتخلى عن خياله[1] عندما يدخل إلى معمله،

د. يوسف مراد و حمد الله سلطان ونُشِرَت هذه الترجمة عام ١٩٤٤.

كان "كلود برنار أستاذ الفسيولوجيا العامة في كلية العلوم بجامعة باريس (١٨٥٤ - ١٨٦٨)، وفي سنة ١٨٥٥ خلف أستاذه ماجندي في كرسي العلوم الطبية في الكوليج دي فرانس. وكان عضواً في أكاديمية العلوم (١٨٥٤) وفي الأكاديمية الفرنسية (١٨٦٩)، ثم عين عضواً في مجلس الشيوخ سنة ١٨٦٩.

ومن أهم مؤلفاته: دروس في الفسيولوجيا التجريبية، دروس في المواد السامة، دروس في الجهاز العصبي، دروس في الفسيولوجيا العامة، دروس في خصائص الأنسجة الحية، دروس في المخدرات الطبية، دروس في الحرارة الحيوانية، دروس في الباثولوجيا التجريبية، دروس في داء السكر وفي توليد السكر لدي الحيوانات، العلم التجريبي، والمدخل إلى دراسة الطب التجريبي الذي نشر سنة ١٨٦٥.

ومن اكتشافاته الفسيولوجية وظائف الغدد الهضمية وخاصة البنكرياس، ووظيفة الكبد في توليد السكر وهذا الكشف يعتبر فاتحة الأبحاث التي أدت إلى دراسة الغدد الصماء وإفراز الهرمونات الداخلية، اكتشاف الأعصاب المحركة للأوعية الدموية، نظرية الحرارة الحيوانية، الدور العظيم الذي تؤديه البيئة العضوية الداخلية، تأثير السميات وكيفية استخدامها في تحليل الظواهر الفسيولوجية.

وكانت نتيجة الاكتشافات العلمية الهامة إقامة علم الفسيولوجيا على أسس تجريبية قوية والتدليل بأن الظواهر الحيوية خاضعة لمبدأ الحتمية العلمية كما تخضع له سائر الظواهر الطبيعية. وكانت هذه الفكرة القضية الكبرى التي دافع عنها "كلود برنار" في دروسه ومؤلفاته بكل قوة واخلاص.

[انظر: Williams, Trevor: Biographical Dictionary of Scientists, Harper Collins Publishers, Glasgow, 1994, PP. 45 – 46.

وأيضاً: د. يوسف مراد، مقدمة الترجمة العربية لكتاب كلود برنار، مدخل إلى الطب التجريبي، ص ز- ط.]

(١)الخيال الذي يشير إليه "برنار" هو "الخيال الإسترجاعي" Reproductive Imagination الذي يتمثل في مجرد استرجاع الصور الحسية لموضوع التفكير وهو يختلف من حيث طبيعته عن "الخيال الإبداعي" Creative Imagination الذي يتحلى به العالِم الأصيل، والذي يبدو في قدرته على تركيب أو إبداع صور لا

تماماً كما يخلع معطفه، وعليه أن يستعيده ثانيةً حينما يغادر معمله، تماماً كما يرتدي معطفه". فكأن العلماء في العصر الحديث فهموا أن البحث العلمي الدقيق يتحلى بالموضوعية ويتخلى عن الذاتية[١].

وينطوي مصطلح "الموضوعية" objectivity على الكثير من المعاني المتداخلة، وفيما يلي بعض منها:

١- الاستقلال عن الوعي أو الإدراك. الوجود الموضوعي للأشجار والجبال يعني أنها يمكن أن توجد حتى ولو لم يدركها أو يعيها أحد. لكن أيمكن للألم أن يوجد حتى ولو لم يشعر به أحد؟ إذا كان ذلك مستحيلاً كان الألم غير موضوعي بهذا المعنى.

٢- استقلال الرأي لو اعتقدنا أن شخصاً ما يستحق الاعجاب وجدير به حتى لو كان لبعض الناس رأي سيء عنه، فإننا نعتقد أن جدارته لا تعتمد على رأي الناس.

٣- حياد الحكم، فالحكم يتحدد عن طريق عوامل مناسبة وليس

توجد في صورتها التركيبية في الواقع، مع أن عناصرها مستمدة من الواقع السابق. فعنصر الإبداع أو الابتكار الذي يبدو في نظريات العلماء، يعني خلق أشياء جديدة لم تكن موجودة من قبل، لأنه يكشف عن حل أصيل للمشكلة. وهذا يعني أن الإبداع يتمثل في التحرر من الواقع المدروس، في الوقت الذي لا يتعارض فيه مع منطق الواقع. [انظر: د. ماهر عبد القادر محمد، المنطق ومناهج البحث – النظرية والتطبيق، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٧، ص ١٩١.]

(١) د. ماهر عبد القادر محمد، مناهج ومشكلات العلوم – الاستقراء والعلوم الطبيعية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣، ص١٢.

مكتبة الفكر الجديد

بعوامل غير مناسبة مثل الميل أو التحيز الشخصي[١].

يتضح مما سبق أن "الموضوعي" هو - على حد تعبير "برتراند رسل": "ما تتساوى علاقته بمختلف الأفراد المشاهدين، مهما اختلفت الزاوية التي يشاهدون منها"[٢]. ومن ثمَّ يحصر العلم نفسه فيما هو موضوعي عام، وليس له أدنى شأن بما هو ذاتي خاص[٣]. فالشيء يكون موضوعياً إذا كان وجوده مستقلاً عن وجود الذوات الذهنية. ومن الطبيعي أن نعتقد أن الكواكب والنباتات موضوعية بهذا المعنى بسبب أن وجودها لا يعتمد على وجود الذوات الذهنية. في حين أن الشيء يكون ذاتياً إذا ما كان وجوده معتمداً على وجود ذوات ذهنية. فالخبرات والأفكار هي ذاتية بهذا المعنى مادامت تعتمد على ذوات ذهنية[٤].

ويرتبط بالجانب الموضوعي أن معظم العلوم الطبيعية نزعت إلى وضع قوانينها ونتائج تجاربها في معادلات رياضية كمية، بعد أن تبين العلماء أن الرياضيات تمثل نموذج الدقة والموضوعية في الصياغة

(1) Penguin Dictionary of Philosophy, edit. By Thomas Mautnen, Penguin Books , London, 1997 , p. 72.

(٢) رسل (برتراند)، الفلسفة بنظرة علمية، ترجمة د. زكي نجيب محمود، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، ١٩٦٠، ص ١٣١.

(٣) د. زكي نجيب محمود، المنطق الوضعي، الجزء الثاني، ص ٣٢-٣.

(4) Guide to Human Thought Ideas that Shaped the World, edit. By Kenneth Meleish, Blooms Poury Publishing Limited, 1993, p. 523.

مكتبة الفكر الجديد

إلى جانب أن التعبير عن الظاهرة بصورة كمية يستأصل الكيف الذي ارتبط غالباً في أذهان العلماء بالبحث في العلل الخفية. والواقع أن الاتجاه الذي ساد الأبحاث العلمية منذ فجر النهضة العلمية كان يثق في ضرورة تكميم الظواهر بغية الحصول على نتائج دقيقة[١].

وإذا كانت "الموضوعية" في العلوم الطبيعية تعني ضرورة أن يرصد العالِـم الوقائع فحسب، أي أن يهتم بالموضوع الموجود أمامه فقط فلا يدخل ذاته: مشاعره أو أحاسيسه أو أمانيه...إلخ في هذا الموضوع. فإن الموضوع في العلوم الإنسانية هو الإنسان، أي إنسان يدرس إنساناً، فهل يمكن أن لا يتأثر الإنسان الباحث بالموضوع أي الإنسان المبحوث. أما إذا انتقلنا إلى مجال الأخلاق فسنجد أن مصطلح "موضوعي" objective مثل مصطلح "ذاتي" subjective أبعد ما يكون عن الوضوح، ومع ذلك فسوف نصف الذاتية الأخلاقية بأنها موضوعية لو أنها ذهبت إلى أن حقيقة ما تؤكده العبارة الأخلاقية مستقلة عن الشخص الذي يقول هذه العبارة في الوقت الذي يستخدمها فيه والمكان الذي يستخدمها فيه[٢].

---

(١) د. ماهر عبد القادر محمد، مناهج ومشكلات العلوم – الاستقراء والعلوم الطبيعية، ص ١٢-٣.

(2) The Encyclopedia of Philosophy, edit. By Paul Edwards, Volume 3, Macmillan Company and the Free Press, New York, 1967, P. 71.

مكتبة الفكر الجديد

عندما أقول عن فعل ما أنه صواب يثير فيَّ أنا شخصياً شعوراً بالاستحسان لا يُعَـد نظرية موضوعية لأن حقيقة ما تؤكده العبارة الأخلاقية - طبقاً لهذه النظرية - سوف يعتمد باستمرار على قائل هذه العبارة. فعندما يستخدم بعض الناس العبارة التي تقول: " إنني أشعر بالنفور من النساء اللائي يصفعن أطفالهن". سوف تنقل لنا حقيقة عند بعض الناس، وسوف تنقل لنا كذباً عند آخرين. ولا ينبغي لنظرية أخلاقية أن تذهب إلى أن حقيقة التأكيدات التي تقرها العبارات الأخلاقية لن تعتمد أبداً على الشخص الذي يقولها ولا الزمان والمكان الذي قيلت فيه [١].

ويخطئ من يظن أن الجوانب الذاتية أقل "واقعية" من الجوانب الموضوعية، وكل ما في الأمر أن الأولى أقل أهمية من الثانية في المجال العلمي، لأنها لا تتيح لنا أن نستدل منها على نتائج عن عالَم الطبيعة الخارجية بحيث تجيئ تلك النتائج موثوقاً بها[٢]. فإذا كان الواقع هو كل ما في المسألة فلن تكون الأشياء الذاتية أقل واقعية من الأشياء الموضوعية، لأن جزءاً من الواقع أن أكون في حالة ألم حتى ولو كان من الواضح أن وجودي في حالة ألم يعتمد على وجود ذات

(1) Ibid., p. 71.

(٢) د. زكي نجيب محمود، المنطق الوضعي، الجزء الثاني، ص ص ٣٤.

مكتبة الفكر الجديد

ذهنية - أي وجود "أنا" تتألم[١].

وللموضوعية دلالة أخرى هي ما يمكن تسميته بالدلالة الإبستمولوجية متى كانت تمثل الواقع تعبيراً عن الحقيقة. وهنا تختلف الآراء حول ما يُقَصد من الواقع أو الحقيقة. فهناك مَنْ يعتقد أن هذا العالَـم لا يوجد مستقلاً موضوعياً عن فكرنا، بينما هناك مَنْ يعتقد بوجود عالَـم موضوعي مستقل عن فكرنا. غير أن المنهج العلمي أو رجل العلم لا يتوقف كي يثبت أي هذين الرأيين هو الصواب لأنها مسألة تخص الفلسفة أو نظرية المعرفة وحدها. ورغم هذا نجد صداها وأثرها في آراء العلماء عن تصوراتهم العلمية وقوانينهم ونظرياتهم، وعما إذا كانت جميعاً تمثل الحقيقة الواقعة، أو هي مجرد ابتكار عقلي. ولكننا نرى طائفة منهم لا ترحب بهذا النزاع وتَعُـده من بين أشباه المشكلات، لأنه مسألة متعلقة باللغة التي نختارها، ونفضل استعمالها، فكل من الواقعيين والمثاليين من العلماء عندما يتصدون لمادتهم العلمية إنما يمضون في نفس الطريق، لأنهم يقومون جميعاً بالاستنتاج من معطيات الحس. والاعتقاد بواقعية الموضوعات العلمية أو إنكارها لا يؤثر قليلاً أو كثيراً في العلم. وكلا الموقفين يمكن إثباته من وجهة نظر المنطق، وأما من وجهة نظر الخبرة فلا

(1) Guide to Human Thought Ideas that Shaped the World, edit. By Kenneth Meleish, p. 523.

مكتبة الفكر الجديد

يمكن البرهنة على واحد منهما. وعلى ذلك فإن الاختيار بينهما سيظل مسألة موافقة وملاءمة [١].

وينبغي أن نسلم أولاً بأن الحقيقة العلمية ليست من الواقع، بل ما يقرره العلماء عن هذا الواقع. وليس ثمَّة حقيقة علمية نهائية، بل تدنو النظريات المتعاقبة منها شيئاً فشيئاً. فالعلم لا يبلغ الحقيقة، أو بالأحرى، لا يكون على طريق الحقيقة، إلا إذا استطاع أن يعزو إلى الأشياء والحوادث معنى ودلالة. ولا يحكم على المعنى والدلالة أو الفكرة، بالصدق أو الكذب إلا في عملها وبلوغها ما تقصده، أي الحكم عليها بلغة نتائجها التي يمكن أن تحرزها. وصدق القضية العلمية إنما هو التنبؤ بتحقق متواصل لها، ووجودها الدائم داخل طائفة المعرفة المقبولة. فلا يمكن وضع الحقيقة العلمية خارج العالم المتغير، بل تظل دائماً تحت الاختبار المتواصل. وهي ليست انعكاساً للوجود أو الواقع في المرآة، فالعلماء لا يكفون عن تغيير الطبيعة لخدمة أهدافهم العلمية، ولا يحدث ذلك التغيير فقط من خلال الاختراع والإنتاج، بل في مواصلة اصطناعهم للمنهج العلمي داخل المعامل نفسها. ففي تجاربهم وتعقبهم لفروضهم يعالجون جوانب

(١) د. صلاح قانصوه، الموضوعية، الموسوعة الفلسفية العربية، المجلد الأول، (الاصطلاحات والمفاهيم)، الطبعة الأولى، معهد الإنماء العربي ١٩٨٦، ص ٨٠٣ - ٥.

مكتبة الفكر الجديد

الطبيعة بحيث يغيرون من وضع الأشياء وعلاقاتها، ويمزجون بعضها ببعض مكونين ارتباطات جديدة، وهكذا يبدلون قطاعاً أو جانباً من البيئة عندما يعزلونه ويخضعونه لأساليب التحكم والضبط والتجريب كطريقة من طرق كشف الحقيقة[١].

وعلينا أن نقول إن الحقائق الموضوعية التي يعتمد عليها العلم لا تقتصر فقط على تلك الملاحظات التي يمكن أن يتفق عليها الملاحظون العاديون على أساس حواسهم، لأن الاقتصار على ذلك قد يؤدي إلى إغفال أهمية المهارة والتدريب اللذين لا غناء عنهما في مجال العلم. فإخصائي الأشعة الماهر يمكنه أن يرى المرض في صورة أشعة (x)، ويستطيع العالِـم الذي يستخدم المجهر microscope أن يرى الخلايا وهي تنقسم، في حين أن غالبية الملاحظين لا يستطيعون ذلك، إذ ينقصهم التدريب والمهارة. ولا يمكن الاعتماد على حقيقة قبول الخبراء لأحكام الملاحظة في اعتبار هذه الأحكام صائبة، فالمعيار هنا هو مدى قدرة هذه الأحكام على الصمود أمام الاختبارات الموضوعية [٢].

يقول إمري لاكاتوش: "هناك تمييز هام بين نظريات المعرفة

(١) المرجع السابق، ص ٨٠٣.

(٢) د. عادل عوض، الإبستمولوجيا – بين نسبية فيرآبند وموضوعية شالمرز، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠٠٤، ص ١٨٣.

مكتبة الفكر الجديد

«المسالمة» «والنشطة»، فأصحاب المبدأ المسالم ينادون بأن المعرفة الحقة هي تأثير الطبيعة على عقل خامد تماماً: والنشاط العقلي يمكن أن ينتج فقط عن الميول. وأكثر المدارس السلبية تأثيراً هي المدرسة الإمبريقية الكلاسيكية. أما الإيجابيون فيعتقدون أننا لا نستطيع قراءة كتاب عن الطبيعة دون نشاط عقلي، أو دون تفسيره على شيء من التوقعات أو النظريات. أما الآن فإن أصحاب المبدأ الإيجابي المحافظين، يعتقدون أننا نولد بتوقعاتنا الأساسية، فنحن نجعل من العالم «عالمنا» لكن يجب عندئذٍ أن نعيش إلى الأبد في سجن عالمنا. إن فكرة أننا نعيش ونموت في سجن من «إطارنا» قد تطورت بفضل كانط بدرجة رئيسة، فأتباع كانط المتشائمون كانوا يعتقدون أن العالَم الحقيقي لا يمكن معرفته أبداً بسبب هذا السجن، بينما المتفائلون كانوا يعتقدون أن الله قد خلق إطارنا الفكري ليناسب العالَم. لكن أصحاب المبدأ الإيجابي الثوريين يعتقدون أن أُطُر التفكير يمكن أن تتطور ويستبدل بها غيرها أفضل منها، فنحن الذين نخلق «سجوننا»ونحن نستطيع أيضاً، بالنقد أن نقوضها"[١].

أما دعاة النزعة الاصطلاحية فيمكن القول إن الفكرة الأساسية التي يجتمعون حولها ويلتقون فيها، تعتبر أن قضايا العلوم التي نذهب

(١) لاكاتوش (إمرى)، برامج الأبحاث العلمية، ترجمة د. ماهر عبد القادر محمد علي، أورينتال، إسكندرية، ٢٠٠٧، ص ٦٧

مكتبة الفكر الجديد

خطأً إلى النظر إليها على أنها بمثابة وصف للعالَـم استخلصناه من تجارب جزئية أقمناها لذلك الغرض، ليست في الحقيقة والواقع سوى وسائل يصطنعها الإنسان لفهم الطبيعة واستغلالها، وهي وسائل روعي ويُراعي فيها جانب اليسر والملاءمة. فالحقائق العلمية إشارات ومواضعات ليس لها سوى قيمة ذرائعية من حيث إنها تفيدنا في تكوين صورة تقريبية عن العالَـم. لهذا فمعيار صدق النظريات العلمية ليس اتفاقها أو عدم اتفاقها مع الخبرة، ليس موضوعيتها أو عدم موضوعيتها في فهم الواقع، بل ملاءمتها. وتطور العلم هو تطور في وسائلنا ومبادئنا وتنويع لها نراعي فيه الجانب العملي الذرائعي. أما المبادئ والنظريات في حد ذاتها، فلا تملك أية قيمة موضوعية وإلا لما تغيرت حقاً[١].

وكل من مارس البحث العلمي في ميادين العلوم الفيزيائية والبيولوجية يعرف كيف تؤثر التوقعات في عملية الإدراك وكيف يمكن أن يحدث الانحراف الإدراكي نتيجة أفكار محببة إلى الباحث، فيرى ما ليس له أساس في الواقع ويعجز عن ملاحظة الواقع ملاحظة محايدة أو في القليل يتشكك فيه إذا كان مخالفاً لتوقعاته. ولهذا السبب الذي يقوم به باحث، لا يؤخذ مأخذ الحقيقة المعترف بها

(١) سالم يفوت، فلسفة العلم المعاصرة ومفهومها للواقع، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٦، ص ٩٦.

مكتبة الفكر الجديد

نهائياً قبل أن يكرره غيره من الباحثين ويصلون إلى نفس النتيجة. فالحقيقة العلمية معلنة وقابلة للملاحظة العامة وليست شخصية[١].

(١) د. نجيب اسكندر، المنهج العلمي في العلوم الإجتماعية، من أوراق ندوة بعنوان: "إشكالية العلوم الإجتماعية في الوطن العربي" تحت إشراف د. أحمد خليفة، دار التنوير للطباعة والنشر،بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٤، ص ٩٠.

مكتبة الفكر الجديد

العلم بين الحياد والتحيُّز

إننا نصف الشخص الموضوعي بأنه محايد، ونعني بذلك أنه لا ينحاز مقدماً إلى طرف من أطراف النزاع الفكري أو الخلاف العلمي. فالعالِم ينبغي أن يقف على الحياد، بمعنى أن يعطى كل رأي من الآراء المتعارضة حقه الكامل في التعبير عن نفسه، ويزن كل الحجج التي تقال بميزان يخلو من الغرض أو التحيُّز. فالموضوعات التي يعالجها، والأفكار التي تُـقَدم إليه، تقف كلها أمامه على قدم المساواة، دون أية محاولة مسبقة من جانبه لتفضيل إحداها على الأخرى، هكذا يرى المـدافعون عن موضوعية العلم والعلماء. كما يعتقد هذا الفريق أيضاً أنه عندما ينحاز العالِم آخر الأمر، فلابد أن يكون انحيازه هذا مبنياً على تقدير موضوعي بحت لإيجابيات الحجج وسلبياتها. والعالِم محايد بمعنى أنه يترك تفضيلاته الذاتية جانباً: إذ إننا لا نستطيع بغير شك، أن نتصور عالِم نبات يهتم في أبحاثه بزهرة معينة لمجرد كونه

مكتبة الفكر الجديد

يحبها، أو عالِم حيوان يهمل نوعاً حيوانياً معيناً لمجرد أنه لا يطيق شكله[١].

والواقع أن اتجاه العلم الحديث كله، منذ أيام ديكارت، يوحي بهذا الرأي: إذ إن التفسير الآلي للطبيعة وللكون قد أخذ يزداد قوة، وأصبح العلم يقف على الطرف المقابل للقيم البشرية، ويؤكد استقلاله التام عنها. وأصبحت الروح الموضوعية ذاتها تعني ترك القيم والمشاعر والأماني البشرية جانباً. وصار المثل الأعلى للمعرفة العلمية هو العلم الرياضي، الذي أخذ يغزو على الدوام ميداناً بعد الآخر من ميادين المعرفة، حتى أصبح له اليوم دور أساسي في العلوم الإنسانية ذاتها. وكانت قمة هذا الاتجاه إلى تأكيد حياد العلم هي المذهب الوضعي، الذي جعل للعلم وللقيم ميدانين مستقلين بينهما هوة لا تُعبر، وأكد أن القيم، من حيث هي تعبير عن أمانٍ ورغبات إنسانية، لا شأن لها بعملية وصف الأمور الواقعة، التي يأخذها العلم على عاتقه. لأن القيم تنتمي إلى ميدان خارج عن نطاق اهتمام العلم، أي أنها " قيم معيارية" normative values، على حين أن مهمة العلم تقريرية ووصفية descriptive فحسب[٢].

(١) د. فؤاد زكريا، التفكير العلمي، عالم المعرفة - العدد الثالث، الكويت، ١٩٧٨، ص ١٨٤.

(٢) د. فؤاد زكريا، آفاق الفلسفة، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٨، ص ص ٣٨٢ -٣.

مكتبة الفكر الجديد

غير أن هناك مَنْ ينكر على العلم حياده من حيث إنه معرفة، والمعرفة كأي كائن اجتماعي هي نظام متطور، هي كائن تاريخي. والعلم أياً كان موضوعه نظام للمعرفة لا ينفصل عن النظام الإجتماعي الذي يتطور بداخله. ومن هنا فإن الحقيقة العلمية أياً كان موضوعها ليست حقيقة مجردة على الإطلاق، بل هي تقوم على افتراضات متغيرة ومعلومات متجددة. مهما تكن أساليب البحث في العلوم الطبيعية القائمة على النماذج الرياضية البالغة الدقة محاولة مستمرة لتمثيل الطبيعة المعقدة ومحاولة لفهم تحولاتها وعملياتها، ولكنها مع ذلك محدودة القدرات معرضة للنقص والنسبية والتحيُّز[١].

فالعلم في حقيقته نشاط اجتماعي موجه يسعى لإنشاء وإنتاج نسق خاص من المعاني والرموز يزعم أصحابها من المتخصصين بأنه يتميز بمستوى وجودي (أُنطولوجي) Ontological معين يرقى عن مستوى حقائق الحياة اليومية التي ينشئها العامة من غير المتخصصين. ويحاول "رجال العلم" التوصل إلى هذا المستوى "الأُنطولوجي" المتميز الذي يحقق لهم مستوى أعلى وأرقى من "الحقيقة"، من خلال إلزام أنفسهم بممارسة انضباط منهجي صارم يقوم على التقيد بمواصفات المنهج العلمي التجريبي وحرفيته مع الالتزام بشخصية

(١) د. فؤاد مرسي، المنهج بين الوحدة والتعدد - رؤية تحليلية، ص ٦٢

مكتبة الفكر الجديد

العالِم الموضوعي "المحايد" الذي يفصل بين عواطفه الشخصية وبين دوره البحثي والعلمي، والذي يمارس دور الملاحظ "المتجرد" الذي يحافظ باستمرار على "تعاليه الإكلينيكي" عن موضوعات ملاحظته"[١].

ويذهب بعض الباحثين إلى حد القول بأن هذا الانضباط المنهجي الصارم، وتلك الشخصية العلمية المتجردة هما مجرد "نماذج مثالية" توجد في كتب مناهج البحث، ولكن يتعذر وجودها في واقع الممارسات الفعلية للبحث العلمي (لاسيما البحوث الإجتماعية)[٢]. فالباحث مهما زعم بأنه محايد وموضوعي لا يمكن أن ينكر أنه كإنسان مفكر يملك عالَماً خاصاً من المعاني والرموز، أو يملك نسقاً خاصاً ينشئ داخله حقيقته الخاصة التي تتضمن وتستند إلى تحيزاته الفكرية والشخصية المميّزة، والتي تجعله يرى العالَـم الخارجي بعيون غير محايدة أو بعيون مصبوغة بتلك التحيُّزات الخاصة. فالباحث لا

(١) د. نبيل مرقص، ممارسات البحث العلمي الإجتماعي - بين الهندسة الإستعمالية القسرية والحوار الثقافي الخلاّق، ضمن أوراق ندوة: إشكالية التحيُّز - رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، تحرير د. عبد الوهاب المسيرى، الجزء الثاني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩٧، ص ص ٥٩-٦٠.

(٢) انظر ما ذهب إليه في هذا الشأن: د. نبيل مرقص، ممارسات البحث العلمي الإجتماعي - بين الهندسة الاستعمالية القسرية والحوار الثقافي الخلاّق، ص ص٥٩-٦٠.

مكتبة الفكر الجديد

يستطيع أن يزعم أنه يستقبل الواقع على شاشة بيضاء نقية مستعدة لاستقبال كل ما يصل إليها من معلومات حسية بموضوعية وانضباط "عداد جيجر" الذي يقيس شدة الإشعاع الساقط عليه[١].

ويتبدى التحيُّز في العلوم الطبيعية والرياضية:

أولاً: في عملية انتقاء عوامل توصف بالأهمية واستبعاد عوامل أخرى توصم بالهامشية.

ثانياً: يظهر التعسف في افتراض حدسي للطريقة التي تتم بها تحولات معينة أو تلك التي تتشابك فيها ظواهر متزامنة. فلا شك أن افتراض عدم وجود علاقة تأثير متزامن بين ظاهرتين لأسباب تتعلق بصعوبة حل المعادلات الناشئة يحد كثيراً من قدرة النماذج الرياضية على التنبؤ.

ثالثاً: تأتي الطرق العددية وما تؤدي إليه من تجزيىء للزمان وتفتيت للمكان إلى خفض سقف طموح تلك النماذج لمحاكاة حركة الطبيعة الحرة المعقدة.

رابعاً: إن البحوث الهندسية والعلمية القائمة على أساليب النماذج الرياضية هي محاولات مستمرة لتمثيل الطبيعة المعقدة،

(١) المرجع السابق، الموضع نفسه.

مكتبة الفكر الجديد

ومحاولة فهم تحولاتها وعملياتها، لكن هذه المحاولات محدودة القدرات ومعرضة للنقص والنسبية والتحيُّز. إن كنا لا نبخس هذه الأبحاث حقها، فلا يجب أن نرسم حولها هالة مثالية من الإحكام والضبط والدقة والإطلاق ليست لها[١].

وقد عالج الدكتور عبد الوهاب المسيرى إشكالية التحيُّز في بحث له بعنوان "فقه التحيُّز" أوضح خلاله [٢]: -

- إن التحيُّز مرتبط ببنية عقل الإنسان ذاتها، الذي لا يسجل تفاصيل الواقع كالآلة الصماء بأمانة بالغة ودون اختيار أو إبداع، فهو ليس سلبياً وإنما فعَّال، ولذا فهو يدرك الواقع من خلال نموذج فيستبعد بعض التفاصيل، ويبقي بعضها الآخر، ويضخم بعض ما يتبقى ويمنحه مركزية، ويهمش الباقي. والعملية الإدراكية هذه ليست عشوائية وإنما تتبع أنماطاً يمكن اكتشاف بعض جوانبها.
- التحيُّز لصيق باللغة الإنسانية نفسها، فلا توجد لغة إنسانية

(١) د. ممدوح عبد الحميد فهمي، أشكال التحيز، ص ٨ (٢٣٤).

(٢) د. عبد الوهاب المسيري، فقه التحيُّز، ضمن أوراق ندوة: إشكالية التحيُّز - رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، تحرير د. عبد الوهاب المسيري، الجزء الأول، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩٧، ص ١٩-٢٠.

مكتبة الفكر الجديد

واحدة تحتوي على كل المفردات الممكنة للتعبير عن الواقع بكل مكوناته، أي أنه لابد من الاختيار. كما ثبت أن كل لغة مرتبطة إلى حد كبير ببيئتها الحضارية وأكثر كفاءة في التعبير عنها. وهذا يعني أن اللغة الإنسانية ليست أداة محايدة، فهي أداة ثرية مركبة تحوي داخلها الكثير من الأسرار.

- إن التحيز من صميم المعطى الإنساني ومرتبط بإنسانية الإنسان، أي بوجوده ككائن غير طبيعي لا يُرَد إلى قوانين الطبيعة العامة ولا ينصاع لها. فكل ما هو إنساني يحوي قدراً من التفرد والذاتية، ومن ثمَّ التحيز. وإذا ما حددنا الحضارة بأنها كل ما صنعته يد الإنسان (في مقابل ما يوجد جاهزاً في الطبيعة)، فإن الثقافي بالضرورة متحيز. بل إن ما يوجد في الطبيعة يجسد تحيُّزاً، إذ إن الإنسان هو الذي يجد الشيء الطبيعي حتى لو عثر عليه بالصدفة. وهذه ليست عملية عشوائية، وإنما هي نتيجة إدراك إنساني فعَّال، وحينما يجد الإنسان الشيء الطبيعي فإنه يسميه، أي يدخله شبكة الإدراك الإنساني، وينقله من عالَـم الطبيعة والأشياء إلى عالَم الإنسان.

غير أن المدافعين عن حياد العلم يرون أن العلم ما هو إلا أداة تتيح

مكتبة الفكر الجديد

للإنسان أن يفهم العالَم المحيط به، وأن يفهم نفسه، على نحو أفضل، ومن ثمَّ فهو يزيد من قدرته على السيطرة على العالَم الخارجي، وعلى عالمه الداخلي الخاص. ولكن هذه القدرة "محايدة" بمعنى أنها لا تعدو أن تكون طاقة أكبر، قابلة لأن تتشكل في اتجاه الخير أو الشر. وهذه الطاقة قد تكون عقلية، تتمثل في فهم أفضل للظواهر، أو مادية، تتمثل في مزيد من السيطرة على هذه الظواهر وتسخيرها لأغراض قد تكون متجهة إلى تحقيق السعادة والرخاء للبشر وقد تتجه إلى إرضاء نزوات حاكم مستبد أو تحقيق مصالح فئة جشعة أو ضمان التفوق لشعب مغتصب[١].

وعلى أية حال فإنه يمكننا القول إن كل تحيزات النموذج المعرفي الغربي الحديث نابعة من واحديته المادية الناجمة عن تصفية ثنائية الإنسان والخالق، ومن ثمَّ ثنائية الإنسان والطبيعة[٢].

١. وأهم التحيزات هو التحيز للطبيعى المادي على حساب الإنساني وغير المادي. وهو تحيز ضد البشرية لصالح الطبيعة المادية وطبيعة الأشياء. ويظهر هذا في محاولة تفسير ما هو إنسانى بما هو طبيعى وغير إنسانى، فيخضع الإنسان

(١) د. فؤاد زكريا، التفكير العلمي، ص ٢٩٧.
(٢) د. عبد الوهاب المسيري، فقه التحيُّز، ص ٥٣.

مكتبة الفكر الجديد

بشكل مطلق لقوانين الضبط والقياس والتحكم والتفسير التي تُسْتَخدم في دراسة الظواهر الطبيعية، وتخضع الظواهر الإجتماعية لممارسات مناهج البحث في العلوم التجريبية نفسها، وهذا ما يسمى بوحدة العلوم (في مقابل استقلال العلوم الإنسانية عن العلوم الطبيعية). وقد ساد اعتقاد بأن العلوم الفيزيائية هي مثال الدقة والإحكام، وأن تقدم المعرفة منوط بالاقتداء بذلك النموذج[1].

٢. في هذا الإطار، ثمَّة تحيز للعام على حساب الخاص. والافتراض السائد أنه كلما تم تجريد الظواهر من خصوصياتها وارتفاع المستوى التعميمي، ازددنا علمية ودقة. ويجب أن يستمر تجريد الظواهر من خصوصياتها (الإنسانية والغائية) التي تشكل ثغرة في النظام الطبيعي المتصل، إلى أن نصل إلى مستوى تعميمي يقال له علمي وعالمي تُسد فيه كل الثغرات وتُصفي فيه كل الثنائيات، وهو المستوى الذي يتم فيه الوصول إلى القانون العام.

٣. وكل هذا يعني أن المنحنى الخاص للظاهرة (خصوصياتها وفرادتها وتعينها) يشكل عائقاً في عملية الدراسة العلمية،

(1) Otta, Max: Science and the Moral Life, A Mentor Book, New York, 1969, p. 137.

مكتبة الفكر الجديد

ويبطىء من عملية التجريد التي تؤدي إلى الوصول إلى القواعد الطبيعية العامة[١].

٤. ثمَّة تحيُّز للمحسوس والمحدود وما يقاس والكمي على حساب غير المحسوس واللامحدود وما لا يقاس والكيفي. فالعلم الغربي قد حصر اللامحدودة والمركبة والكيفية (في ظل النماذج التحليلية المادية) إلى التجاهل، فما لا يمكن قياسه أو ملاحظته خارجياً، فهو ليس موضوعاً للدراسة العلمية[٢].

٥. ثمَّة تحيُّز للبسيط والواحدي والمتجانس على حساب المركب والتعددي وغير المتجانس.

٦. تحيُّز للموضوعي على حساب الذاتي، فالروح الموضوعية شرط لا غناء عنه للعلم[٣]، والالتزام بالموضوعية في هذا السياق يعني أن يتجرد الباحث من خصوصيته ومن التزامه الخلقي ومن عواطفه وحواسه وكليته الإنسانية، ويحول عقله إلى صفحة بيضاء وسطح شمعي يسجل الحقائق ويرصد التفاصيل بحياد شديد وسلبية كاملة، وبذلك تتحول

(١) د. عبد الوهاب المسيري، فقه التحيُّز، ص ٥٤
(٢) المرجع السابق، الموضع نفسه.
(٣) د. فؤاد زكريا، آفاق الفلسفة، ٣٨٢

مكتبة الفكر الجديد

الظاهرة موضع الدراسة إلى مجرد شيء. وهذه الموضوعية تمتد لتشمل الظاهرة الإنسانية التي على الباحث أن يراقبها بتجرد كامل وحيادية وبرود شديدين، بحيث يصبح الإنسان موضوعاً لا يختلف عن الموضوع الطبيعي، يُوصف ويرصد من الخارج مع إهمال الجوان والدوافع الداخلية. ومن ثمَّ يمكن للتفسيرات أن تكون تفسيرات شاملة ونهائية. ومع هذا، يجب الإشارة إلى أن الواحدية السببية تعبر عن نفسها من خلال تأرجح شديد بين قطبين متنافرين: موضوعية كاملة في المنهج وحيادية في الإجراءات ورغبة في الوصول إلى القوانين العامة البسيطة الخالية من المطلقات والغائيات التي تفسر الكون تفسيراً شاملاً، أي أن هناك رغبة في التفسير العقلاني المادي الذي يُدخل كل شيء في شبكة السببية الصلبة والاستمرارية المطلقة التي لا انقطاع فيها. وبطبيعة الحال، تفشل هذه المحاولة، لاسيما إذا كان موضوع الدراسة هو الإنسان[1].

والتحيز ضد الغائية والخصوصية والفردية والتركيبية والذاتية هو تحيز ضد الصفات الإنسانية للإنسان وتحيز للصفات

(١) د. عبد الوهاب المسيري، فقه التحيُّز، ص ص ٥٥-٦.

مكتبة الفكر الجديد

المادية الطبيعية، أي أنها تعبير عن تصفية ثنائية الإنسان والطبيعة. ويمكن أن نرى تحيزات النموذج المادي الأخرى في هذا الإطار، فالتحيز للحركة (في مقابل السكون)، والتراكم والاستمرارية (في مقابل الانقطاع وعدم الاستمرار)، والخط المستقيم والدائرة الكاملة (في مقابل الخطوط المتعرّجة والحلزونية والأشكال الناقصة)، هي كلها تحيّزات للطبيعى على حساب الإنساني[١].

٧. ويتبدّى هذا التحيز المعادي للإنسان في هيكل المصطلحات، فالمصطلح الأمثل هو المصطلح العام – الدقيق – الوصفي – الكمي، وهذه المصطلحات هي في جوهرها صفات للأشياء الطبيعية، لوصف الظاهرة الإنسانية. ويرتبط بكل هذا تحيز للدقيق الرياضي على حساب المبهم، فكل العلوم تحاول أن تكون علوماً دقيقة لتتخلص من الثغرات، ومن هنا تصبح لغة الرياضيات لغة نموذجية حيث لا توجد ثغرة تفصل بين الدال والمدلول، أو بين الاسم والمسمى، أو بين الإشارة والمشار إليه حيث تصبح (أ) هي (أ) و(ب) هي (ب)، ومن ثمَّ يلاحظ الاستخدام المتزايد للنماذج الرياضية في معظم العلوم

(١) المرجع السابق، ص ٥٦.

مكتبة الفكر الجديد

الإنسانية. والنموذج الرياضي هو صورة ذهنية تمثل الواقع تمثيلاً كمياً ورياضياً، ولها قدرة على محاكاة حركته وتفسيرها والتنبؤ بها. وقد تزايد الاعتقاد بأنه يمكن ترجمة أكثر الظواهر تركيبياً وتعقيداً إلى معادلات وأرقام.

وحتى يتسنّى للباحث دراسة الملامح الكمية الخارجية للظاهرة، لابد أن يعتمد أساساً على أدوات القياس والتفتيت الكمي الخارجي (استمارة - استبيان - مؤشرات إحصائية - نماذج رياضية)، وذلك للإحاطة كمياً بالظاهرة، وهو، في سبيل وصوله إلى هذه النتائج العلمية، يكون حريصاً على تفتيت الكلية العضوية للظاهرة وعلى تشريحها واختزال عناصرها الأولية وجزئياتها بحيث يتحول التمايز الكيفي الداخلي للظاهرة إلى اختلاف كمي خارجي[1].

والتحيز للدقة البالغة (التي تصل إلى لغة الجبر والرياضة) هو تحيز للنموذج الطبيعي غير الإنساني - كما أسلفنا. ولكن هناك عنصر آخر ينبغي إدراجه إذ يجب أن ندرك أن التحيز للدقة البالغة في التعريفات والمطالبة بأن تكون جامعة مانعة واضحة هو تحيز للمصطلحات الغربية. فالمشروع المعرفي الغربي الحديث هو المشروع الوحيد في العالَم الذي اكتملت معالمه وأطره ومنهجياته وآلياته، وهو مشروع

(١) المرجع السابق، ص ص ٥٦ - ٧.

مكتبة الفكر الجديد

تسانده مجموعة هائلة من المؤسسات البحثية والثقافية والسياسية والعسكرية التي يمكنها توثيق أي شيء وإشاعة أية مفاهيم وحجب أية معلومات أو تهميشها، في مقابل المشاريع المعرفية الأخرى[1].

(١) المرجع السابق، ص ٥٧.

مكتبة الفكر الجديد

«الموضوعية العلمية» عند كارل بوبر

يرى "بوبر" أن "الموضوعية العلمية" صفة تعتمد إلى حد ما على النظم الإجتماعية، ويرفض القول الساذج بأنها وليدة موقف ذهني أو سيكولوجي لدي الفرد من العلماء، كما يرفض القول بأنها تعتمد على ما حصله العالِـم من مران وما اكتسبه من تعود على الحيطة وتجنب التحيُّز، لأن مثل هذا القول من شأنه – في رأي "بوبر" – أن يستثير الرأي المعارض الذي يذهب إلى التشكيك في قدرة العلماء على اتخاذ موقف موضوعي. يقول أصحاب هذا الرأي الأخير إن افتقار العلماء الموضوعية قد لا يكون له أثر يذكر في العلوم الطبيعية حيث لا يوجد ما يثير انفعالهم، أما في العلوم الإجتماعية التي لا تنجو أبحاثها من الأهواء الإجتماعية والتحيز الطبقيّ والمصالح الشخصية فقد يكون لهذا الافتقار إلى الموضوعية أثر فتاك. وهذا الرأي الذي

مكتبة الفكر الجديد

ظهر بصورة مفصلة فيما يسمى بـ"النظرية الإجتماعية في المعرفة" يغفل تماماً عما للمعرفة العلمية من طابع اجتماعي أو نُظمي، لأنه يرتكز على القول الساذج بأن الموضوعية معتمدة على سيكولوجية الأفراد من العلماء. وهو لا يرى أن جفاف موضوع البحث في العلوم الطبيعية أو بُعده عن الأمور الشخصية لا يمنعان التحزب والمصلحة الذاتية من التسلل إلى معتقدات العالم؛ والحق أننا لو اعتمدنا كل الاعتماد على نزاهة العالِم عن الهوى، لاستحال العلم تماماً، بما في ذلك علم الطبيعة[١]، يقول "بوبر" في هذا الصدد:

"يخطىء من يعتقد أن العلماء أكثر موضوعية من سواهم من البشر. إنها ليست موضوعية أو تجرد العالِم كفرد بل العلم ذاته هو الذي يتجه نحو الموضوعية (التي يجوز أن نطلق عليها "تعاون الأصدقاء اللدود بين العلماء" – أي الاستعداد للنقد المتبادل)"[٢].

إن ما غفلت عنه "النظرية الإجتماعية في المعرفة" هو عين الصفة الإجتماعية للمعرفة – أعني ما للعلم من طابع اجتماعي أو عام: إذ إنها أهملت قيام العلم على قدرة الأفراد على اختباره، واستخدامه للنظم في

(١) كارل بوبر، عقم المذهب التاريخي، ترجمة عبد الحميد صبر، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٥٩ ص ص ١٨٤-٥.

(٢) كارل بوبر، أسطورة الإطار في دفاع عن العلم والعقلانية، ترجمة د. يمنى طريف الخولى، عالم المعرفة، العدد ٢٩٢، ابريل/ مايو ٢٠٠٣، ص ١٢٢

مكتبة الفكر الجديد

نشر الأفكار الجديدة ومناقشتها، وهذان الأمران هما اللذان يصونان الموضوعية العلمية، وهما أيضاً اللذان يفرضان على ذهن العالِم نوعاً من النظام يلتزم به.

ويرد " بوبر" على حجة المذهب التاريخي القائلة بأن البحث العلمي في المشكلات الإجتماعية لابد أن يؤثر هو نفسه في الحياة الإجتماعية، وإذن فمن المستحيل على العالِم الإجتماعي المدرِك لهذا التأثير أن يحتفظ بالموقف العلمي الصحيح المتصف بالموضوعية والتنزه عن الهوى. قائلاً إن هذا الأمر لا تختص به العلوم الإجتماعية وحدها. فالعالِم الفيزيقي والمهندس الفيزيقي يوجدان معاً في هذا الموقف نفسه. وليس المهندس الفيزيقي بحاجة إلى أن يصير عالِماً اجتماعياً حتى يتبين أن اختراع طائرة جديدة قد يكون له أثر هائل في المجتمع[١].

كما يؤكد "بوبر" أن ما يسمى بالموضوعية العلمية يتوقف على المقاربة النقدية فقط لا غير: على واقعة مفادها أنك إذا كنت منحازاً لتحبيذ نظريتك الأثيرة، فسوف يتلهف فريق من أصحابك وزملائك على نقد ما أنجزته - أي على تفنيد نظرياتك الأثيرة إذا استطاعوا (وإذا لم يفعلوها، فسيفعلها بعض العاملين من الجيل التالي). وينبغي

(١) المرجع السابق، ص ١٨٥.

مكتبة الفكر الجديد

أن تشجعك هذه الواقعة على أن تحاول تفنيد نظرياتك بنفسك - معنى هذا أنها قد تفرض عليك نظاماً درسياً معيناً[١].

ولكي يزداد معنى "الموضوعية العلمية" عند "بوبر" وضوحاً؛ علينا التذكير بأن المنطلق الأساسي لنظرية بوبر في المعرفة أو ركنها الركين هو إصراره على أن المعرفة في كل صورها - وعلى رأسها العلم - موضوعية. ذلك أن بوبر يميز بين مغزيين لمعنى كلمة "معرفة Knowledge":

- المعرفة بالمغزى الذاتي. وهي تتكون من اعتقادات الذات ونزعاتها ومشاعرها وما تراه أو تقره أو تنكره. و"بوبر" يرى أن المعرفة بهذا المغزى من اختصاص علم النفس.

- المعرفة بالمغزى الموضوعي: وهي تتكون من كل مخزونات الكتب وأجهزة الكمبيوتر، أي أن كل الأفكار المطروحة سواء كانت فلسفية أو علمية، مادامت مصوغة لغوياً. إنها موضوع الإبستمولوجيا التي تبحث في محتواها المعرفي وعلاقاتها المنطقية وأسسها المنهجية... تفكير نيوتن في نظريته ونزوعه نحو صياغتها مثال للمعرفة الذاتية. أما اللحظة التي صاغها فيها فهي الحد الفاصل الذي نقلها من بحوث علم النفس إلى بحوث الإبستمولوجيا. لأن الصياغة

(١) كارل بوبر، أسطورة الإطار في دفاع عن العلم والعقلانية، ص ١٢٢

مكتبة الفكر الجديد

اللغوية هي التي تجعلها قابلة للنقد والنقاش والتداول بين الذوات فتصبح موضوعية[١].

إن السؤال الذي ينبغي طرحه باستمرار، فيما يتعلق بموضوع الحقيقة العلمية، هو: هل تنفلت القوانين العلمية والكشوف، والموضوعية التي ينطوي عليها العلم، من الشروط التاريخية والإجتماعية والسيكولوجية الماثلة زمن ظهورها، أم أنها تظل سجينة تلك الشروط؟ لقد بيَّن فلاسفة العلم أمثال "كارل بوبر"، وتوماس كون"، و"إمري لاكاتوش" أن ثمَّـة مسلّمات غير مبررة تنطوي عليها النظريات العلمية، بل الأدهى من ذلك، أن هناك "أفكاراً" قبلية تحرك ذهن العلماء كالحتمية عند "أينشتين" واللاحتمية عند "نيلز بور" Niels Bohr، ولقد كشف "كُهن" Kuhn النقاب عن وجود مبادئ خفية تتحكم في المعرفة وتسمح بتنظيمها[٢]، أما "كارل بوبر" فيرى "أن العلماء العظماء، شأنهم شأن الشعراء، كثيراً ما يستلهمون حدوساً غير عقلانية"[٣]، ويؤكد أن:" كل الملاحظات ملقحة بنظرية،

(١) د. يمنى طريف الخولى، فلسفة العلم في القرن العشرين، الأصول – الحصاد – الآفاق المستقبلية، عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٦٤، ديسمبر ٢٠٠٠ ص ص ٣٤٧ – ٨.

(٢) إدجار موران، هل العلم بدون وعي مدان؟ . ترجمة محمد فرطميسي، مجلة "فكر ونقد"، على الإنترنت، العدد الثامن والثلاثون، الموضوع ٣٠، ص ٢:
http://www.fikrwanakd.aljabriabed.net/n38_29fartamisi.htm

(٣) بوبر (كارل)، أسطورة الإطار، تحرير مارك أ. نوترنو، ترجمة د. يمني طريف

ولاتوجد ملاحظة صافية نزيهة متحررة من النظرية..."[١]. ويقول "بوبر": "لقد كان فرنسيس بيكون على حق إذ ساوره القلق من أن نظرياتنا تجعل ملاحظاتنا متحيزة. ودفعه هذا إلى نصح العلماء بأنهم يجب أن يتجنبوا أي تحيز، وذلك عن طريق تصفية عقولهم من كل النظريات. ومازلنا نستمع إلى مثل هذه الإرشادات. بيد أننا لا نستطيع بلوغ الموضوعية بعقول خاوية. إن الموضوعية تعتمد على النقد وعلى المناقشات النقدية والاختبار التجريبي النقدي. وبصفة خاصة، يجب أن نستبين جيداً كيف أن صميم أعضائنا الحسية تجسد ما يُعَد تحيزات[٢].

ويلاحظ "بوبر" خطأً كبيراً تردت فيه الإبستمولوجيا التقليدية منذ أرسطو وديكارت وهوبز ثم باركلي وهيوم حتى كانط وصولاً إلى رسل وفريجه، حين اعتبروا الإبستمولوجيا بحوثاً في المعرفة التي تؤول إلى علاقة تربط عقولنا الذاتية بموضوع المعرفة، أسماها رسل الاعتقاد belief أو الحكم judgement. يكشف بوبر جهوده ليستأصل هذا الخطأ، ويؤكد أن الإبستمولوجيا لا شأن لها البتة بالذات العارفة، بل فقط بموضوع المعرفة. وهذه الموضوعية المنفصلة تماماً عن

الخولي، عالم المعرفة، الكويت، العدد - ٢٩٢، أبريل/ مايو ٢٠٠٣، ص ٣٣.

(١) المرجع السابق، ص ٤١.

(٢) المرجع السابق، الموضع نفسه.

مكتبة الفكر الجديد

الذوات تنسحب على العلم، وسواء اعتبرناه إبستمولوجيا متقدمة أو ظاهرة اجتماعية أو بيولوجية أو مجرد أداة معرفية، أو حتى وسيلة للتكنولوجيا والإنتاج الصناعي، فهو بناء موضوعي متجرد من معرفة الذوات. وفلسفة بوبر بهذا تفترق تماماً عن بعض التأويلات المثالية الذاتية التي شهدتها فلسفة القرن العشرين، نتيجة التطرف في معالجة التغير الكبير الذي طرأ على مفهوم التجريبية[١].

لكن – كما يبدو – إذا لم يساند تاريخ العلم نظرية العقلانية العلمية، فسوف يكون أمامنا كما يقول "لاكاتوش" اختياران: "الاختيار الأول هو أن نتوقف عن محاولة إعطاء شرح عقلاني لنجاح العلم. فالمنهج العلمي (أو منطق الكشف) الذي يُنْظَر إليه كنظام للتقييم العقلاني للنظريات العلمية – ومعايير التقدم – يختفي. وبالطبع يمكننا مع ذلك أن نحاول شرح التغييرات في "النماذج" بلغة علم النفس الإجتماعي. وهذه هي طريقة كل من «بولانى» و«كهن». أما الاختيار الآخر فهو أن نحاول على الأقل أن نقلل من العنصر الاصطلاحي في التكذيب...، وبذلك ننقد المنهجية العلمية وفكرة التقدم العلمي. وهذه هي طريقة بوبر"[٢].

---

(١) د. يمنى طريف الخولى، فلسفة العلم في القرن العشرين، الأصول – الحصاد – الآفاق المستقبلية، ص ٣٤٨.

(٢) لاكاتوش (إمري)، برامج الأبحاث العلمية، ص ٨٦ – ٧.

مكتبة الفكر الجديد

ولكي تكون المعرفة العلمية موضوعية تماماً لابد من محك موضوعي للحكم عليها بالصدق أو الكذب، خصوصاً أن "بوبر" يسلم تسليماً بالواقعية، بمعنى الوجود الواقعي المستقل للعالَم الخارجي. ويرى أن العلم هدفه الوصول إلى تفسير مرضٍ لهذا العالَـم، والنظرية العلمية ذات مضمون معرفي ودلالة إخبارية، فيفترق بوبر افتراقه الحاد عن الأداتية، ويؤكد أن وظيفة العلم هي البحث الدؤوب عن حقيقة العالَـم وعن الصدق Truth. ويلعب الصدق دور المبدأ التنظيمي الذي يحكم شتى الجهود المعرفية بوصفه الغاية المرومة بعيدة التحقيق. البحث عن الصدق ومزيد من الصدق هو الهدف الدائم للعلم التجريبي، الصدق وليس اليقين. فليس هناك علم تجريبي يقيني ولن يكون. ويوضح "بوبر" هذا بأن يشبه الصدق بقمة جبل عادةً ما تكون مغلفة بالسحب، من يحاول تسلق الجبل والصعود إليها تواجهه صعوبات كثيرة، وحتى إذا وصل إليها قد لا يعرف أنه بلغها فعلاً، لأنه قد يعجز وسط أطياف السحب عن التمييز بين ذروة الجبل الحقيقية والقمم الثانوية. غير أن هذا لا يؤثر في الوجود الموضوعي لذروة الجبل الحقيقية، واستحالة اعتبار النظرية العلمية يقينية أو مطلقة الصدق يمثل اعترافاً ضمنياً بالوجود الواقعي الذي نفشل في الوصول

مكتبة الفكر الجديد

إليه على رغم أن العلم يتقدم نحوه باستمرار[١].

وعلى هذا النحو نتبين أن الموضوعية لم تعد انعكاساً لواقعة أصلية يتطابق معها رجل العلم، بل هي شروط يلتزم بها، وأهم تلك الشروط أن يكون ما هو موضوعي مشتركاً بالنسبة لأذهان كثيرة، وبالتالي يمكن نقله من واحد لآخر. وما يمكن أن يكون مشتركاً وقابلاً للنقل ليس الإحساسات أو الموجودات المنعزلة الواحدة عن الأخرى، بل هو ما يمكن أن يصاغ في علاقات ونظريات. وما تستطيع النظرية أن تقدمه هو صورة لم يستوف صقلها، وبالتالي فهي صورة مؤقتة وزائلة. ومن ثمَّ فمجال الاختيار مفتوح أمام العلماء ليستكملوا هذا الصقل والاقتراب من الحقيقة. وهنا تأتي الموضوعية مرتبطة ومشروطة بموقف معين، لأنه لابد من اشتراك الذين يصطنعون المنهج العلمي في نظام واحد، على أساس من وحدة جهازهم التصوري، ومن خلال ما توافر لهم من عالَـم مشترك للبحث والمناقشة، بحيث يصلون إلى النتائج نفسها، ويصفون كل ما ينحرف عن إجماعهم بأنه على خطأ. وهذه المشاركة ليست واقعاً مفروضاً، بل هي مساهمة إيجابية، والتزام صريح تبعث عليه قيم ومعايير[٢].

---

(١) د. يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، الأصول - الحصاد - الآفاق المستقبلية، ص ٣٤٨-٩.

(٢) د. صلاح قانصوه، الموضوعية، الموسوعة الفلسفية العربية، ص ٨٠٤.

مكتبة الفكر الجديد

وإذا كان الصدق يلعب هذا الدور الكبير، فما هو معياره؟ في هذا يتخذ "بوبر" الموقف الشائع وهو التناظر correspondence مع الواقع. معيار التناظر يحقق أهداف "بوبر" الإبستمولوجيا، ويؤكد رفضه للأداتية ومعاييرها. والأهم أن التناظر على طرف النقيض من النظريات الذاتية في الصدق التي ترجعه إلى تاريخ أو علاقة المعتقد بالمعتقدات الأخرى. فيكون الصدق هو ما نستطيع تبرير الاعتقاد فيه أو قبوله. و"بوبر" بالطبع لا يريد معياراً للتبرير، ولا للاعتقادات التي هي مسألة ذاتية، بينما يصر دائماً على موضوعية المعرفة[١].

يضفي "بوبر" منتهي الموضوعية على المعرفة لدرجة الاستقلال التام عن أي شخص يعرف أو يعتقد، حتى يزعم أنها معرفة بغير ذوات عارفة أصلاً. مادام مكانها هو العالم ٣، فما هو العالم ٣؟ إنه ابتكار مثير لـ"بوبر" حين يقول إن هناك ثلاثة عوالم[٢]:

العالم ١: هو العالم الفيزيقي المادي.

العالم ٢: هو العالم الذاتي، عالم الوعي والشعور والمعتقدات والإدراكات والحالات العقلية والميول السيكولوجية.

---

(١) د. يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، الأصول – الحصاد – الآفاق المستقبلية، ص ٣٤٩.

(٢) اعتمدنا في عرضنا لفكرة العوالم الثلاثة التي قال بها "بوبر" على كتاب الدكتورة يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، الأصول – الحصاد – الآفاق المستقبلية، ص ٣٤٩-٣٥١.

مكتبة الفكر الجديد

العالم ٣: عالم المحتوى الموضوعي للفكر كالعلم والفلسفة والأعمال الأدبية والفنية والنظم السياسية والتقاليد والقيم والأعراف...محتوى هذا العالم هو محتوى الكتب والصحائف وأجهزة الكمبيوتر والمتاحف والمعارض.

والعلاقة بين العوالم الثلاثة متداخلة، لكن العالم ٢ هو الوسيط الذي يربط بين العالم ١ والعالم ٣ بفضل علاقاته مع كل منهما. فهو يدرك العالم ١ بالمفهوم الحرفي للإدراك، ويخلق العالم ٣ ويظل يدرسه ويضيف إليه ويحذف منه، حتى القوة التكنولوجية في العالم ٣ تمارس تأثيرها في العالم ١ بفضل العالم ٢.

يقول بوبر إن هذه النظرية في جوهرها موقف تعددي جديد، يرفض الواحدية والثنائية، يرفض بوبر أيضاً الواحدية المحايدة مع ماخ وجيمس ورسل وتعديتها المفرطة، ويحل مشكلة العقل والمادة عن طريق طرف ثالث يربط بينهما، ويرجع أصولها إلى سائر النظريات الميتافيزيقية التعددية كالأفلاطونية والهيجلية وموناد ليبنتز الروحية... كلها في رأي بوبر نظريات تقول بوجود عالم غير عالمي العقل والمادة مثل العالم ٣. ولكن بوبر يتلافي تطرفاتها الميتافيزيقية فلا يجعل العالم ٣ سرمدياً مطلق الثبات كعالم المثل الأفلاطوني نتأمل فيه كما لو كان نجوماً في السماء. العالم ٣ من

مكتبة الفكر الجديد

صنع الإنسان، ومكوناته واقعية، إنها المشاكل وحلولها، ويحوي دائماً الخطأ بجانب الصواب، وهو دائم التقدم والتغير والنمو. وهذه المرونة تجعله ملائماً للعلم الحديث.

العالم ٣ يجسد موضوعية المعرفة بفضل استقلاله. فهو منتج مباشر لنشاطات الإنسان المختلفة، لكن مكوناته تستقل في خلق مشاكلها التي قد يعجز الإنسان عن حلها، وفي خلق خصائصها التي تظل في حدود المجهول وقد يعرفها الإنسان أو لا يعرفها. مثلاً لا تزال كثير من مشاكل الأعداد الأولية والصماء واللامتناهية مثارة في علوم الرياضة، فالإنسان خلق سلسلة الأعداد لكنه لم يخلق مشاكلها ولا خصائصها كالتمييز بين الأعداد الفردية والزوجية. مثل هذا نتيجة لخلقنا، غير مقصودة ولا يمكن تجنبها، نتيجة ثانوية أو جانبية by-product.

على هذا يفرق بوبر في مكونات العالم ٣ بين المنتجات المقصودة التي اجتمع أشخاص معينون وبذلوا جهداً موجهاً لخلقها، مثل المؤسسات والأعمال الفنية والقوانين والدساتير... وبين المنتجات الجانبية الثانوية التي لم يخلقها الإنسان بقصد، بل انبثقت من تلقاء ذاتها. والغريب أنها قد تكون أكثر أهمية من المنتجات المقصودة. فأهم كيانات العالم ٣ طُرًّا اللغة، وليس هناك جماعة اجتمعت

مكتبة الفكر الجديد

لتخطيطها، بل تبدأ بنشاط أولى توجهه الحاجة ثم يتسع ويتطور ويتحسن تدريجياً بغير خطة سابقة. إنها أشياء صنعها الناس بغير أن يصنعها واحد منهم، وحين تتبدي فائدتها تتطور وتتحسن. العالم ٣ هو الذي يميز الإنسان عن الحيوان. موضوع الإبستمولوجيا يقطن فيه، ولا شأن لها البتة بالعالم ٢. وأهم مكونات العالم ٣ اللغة والنقد وبفضل النقد يكون تطوره ونماؤه الدائم نحو الأفضل.

ومادام بوبر يولي كل هذه الأهمية للنقد، يمكن أن نتفهم جيداً لماذا كانت البطاقة الفلسفية التي يتخذها عنواناً لفلسفته هي العقلانية النقدية Critical Rationalism.

مكتبة الفكر الجديد

نقد هابرماس[1] للنموذج الوضعي للمعرفة

(١) هابرماس، يورجين (وُلِدَ سنة ١٩٢٩-)
فيلسوف وعالِم اجتماع ألماني، وأهم ممثلي الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت والنظرية النقدية الإجتماعية التي يعمل من أكثر من ثلاثين عاماً على بلورتها وتطويرها والتوسع فيها وتحويلها إلى فلسفة واعية وعملية للتحرر والتواصل، وذلك بالتعمق في مشكلات نظرية المعرفة وفلسفة اللغة ونظرية الأنساق وتكوين الرأي العام و"استلابه" في المجتمع الرأسمالي والليبرالي الحديث، مع التزود بعناصر مستمدَّة من شتى الاتجاهات الفلسفية المعاصرة، كالفلسفة التحليلية، وفلسفة التفسير أو التأويل الذاتي والتاريخي (الهيرمينويطيقا)، والأنثروبولوجيا الفلسفية، فضلاً عن الاهتمام بالحركات الإجتماعية "الجذرية" الجديدة في أوساط الثوريين والمحتجزين على هَيْمنة العقلانية العلمية والتقنية وسيطرة مؤسسات الدولة الحديثة على حياة الفرد والمجتمع سيطرة تشبه أن تكون حالة حصار شاملة...
وُلِدَ عام ١٩٢٩ في مدينة دوسلدورف، ودرس في جامعتي جوتنجن وبون التي حصل منها على الدكتوراه في عام ١٩٥٤ برسالة عن المطلق والتاريخ أو التمزق في تفكير شيلنج (أحد فلاسفة المثالية الألمانية)، ثم تابع دراسته في جامعة ماربورج التي حصل منها في عام ١٩٦١ على دكتوراه التأهيل للتدريس الجامعي برسالة عن "تحول بنية الرأي العام، بحوث عن إحدي مقولات المجتمع البرجوازي (نويفيد، لوخترهاند، ١٩٦٢)".
عُيِّن في وظيفة محاضر للفلسفة بجامعة هيدلبرج، ثم شغل منصب أستاذ الفلسفة والاجتماع فيها من عام ١٩٦٤ إلى عام ١٩٧١، عندما تولى إدارة "معهد ماكس بلانك لبحث الشروط الحيوية لعالم العلم والتقنية" من عام ١٩٧١ إلى عام

مكتبة الفكر الجديد

ينفي "هابرماس" وجود حياد أو براءة أو صفاء علمي. فالعلم في سياق العقلانية التقنية تحايثه حسابات السياسة أي إرادة قوة بالمعنى النتشوي، مما يقتضي إلقاء الضوء عليها. وهو أمر يتطلب نقد الاتجاه الوضعي والتيارات الداعية إلى العلم والنزعة التقنية. فهاته جميعاً تعبيرات متنوعة للأيديولوجيا المكونة للحداثة التقنية[1].

يُعَد الاتجا، الوضعي، في نظر هابرماس، تعبيراً عن ذلك الجنوح

١٩٨٢، ودعي في الوقت نفسه ليكون أستاذاً شرفياً بجامعة فرانكفورت التي استأنف التدريس بها منذ عام ١٩٨٤ - كما تلقى جائزة هيجل سنة ١٩٧٤ من مدينة شتوتجارت، وجائزة فرويد سنة ١٩٧٦.

كان أول أعماله هي رسالته عن تحول بنية الرأي العام، وقد قدم فيها رصداً تحليلياً وتاريخياً موثقاً ودقيقاً لمسار الدعاية من القرن السابع عشر إلى التاسع عشر، تناول فيه تطور فكرة الرأي العام وتكوين الإرادة الديموقراطية، وكيف نشأت مع نشأة الرأسمالية. تركزت جهود "هابرماس" التحليلية والنقدية على مفهوم العقلانية ومشكلة "العقلنة" للحياة الإجتماعية التي سبق أن عالجها بعض أعضاء مدرسة فرانكفورت - وبخاصة ماركيوز الذي جعلها من أهم خصائص المجتمع والإنسان "ذي البعد الواحد" في ظل النظم الرأسمالية والشمولية. وقد حاول "هابرماس" أن يتناول المشكلتين من منظور أوسع، فتطرق للبحث في مسائل دقيقة في الإيستمولوجيا (نظرية المعرفة) وفلسفة اللغة، وفي قضايا ومشكلات عينية في النظرية الإجتماعية، مثل مشكلة الشرعية في الرأسمالية المتطورة.

[انظر: د. عبد الغفار مكاوي، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت - تمهيد وتعقيب نقدي، حوليات كلية الآداب، الكويت، الحولية الثالثة عشرة، ١٩٩٣، ص ص ٩٠ - ٢.]

(١) سالم يَفوت، هابرماس ومسألة التقنية، مجلة "فكر ونقد" على الإنترنت، العدد الأول الموضوع الرابع:

http://www.fikrwanakd.aljabriabed.net/n01_04yafut.htm

مكتبة الفكر الجديد

إلى تحنيط العلم لدرجة يتحول معها إلى إيمان جديد واثق من قدرته الهائلة على تقديم أجوبة لكل الأسئلة المطروحة واقتراح حلول ناجعة لكل القضايا. أما النزعة التقنية فهي الجنوح إلى اعتبار التطبيق العملي للمعرفة العلمية هو وحده الكفيل بأن يتقدم المجتمع؛ بل إنها تنظر إلى التقنية نظرة أداتية محيلة إياها إلى وسائل محايدة قوامها التوظيف العملي للمعرفة العلمية ومتناسية أن التقنية تحول الإنسان نفسه إلى وسائل وأدوات، فتقمع طاقاته الإبداعية والتحررية. بهذا المعنى تكون أيديولوجيا ينبغي انتقادها من خلال نقد الحداثة والمجتمع الحديث الذي يجمع بين العلم والتقنية والصناعة وحول ذلك إلى "قوة منتجة أولى". فمنذ أن تحول العلم إلى قوة منتجة ذات وظائف اجتماعية، بات قوة أيديولوجية باعتبار أنه يلعب دورا أساسياً في منح المشروعية للنظام الإجتماعي والسياسي الحديث المؤسس على العقلانية التقنية[1].

أما "النموذج المعرفي" فنعني به صوة عقلية للعالَم تشكل ما يمكن تسميته "خريطة معرفية"، ينظر الإنسان من خلالها للواقع. والنموذج لا يوجد جاهزاً بل هو نتيجة عملية تجريد عقلية مركبة (تفكيك وتركيب) إذ يقوم العقل بجمع بعض السمات من الواقع

(١) المرجع السابق، ص ٣.

مكتبة الفكر الجديد

فيستبعد بعضها ويُبْـقِي البعض الآخر، ثم يقوم بترتيبها بحسب أهميتها ويُركِّبها، بل أحياناً يضخمها بطريقة تجعل العلاقات تشكل ما يتصوره العلاقات الجوهرية في الواقع، وتسمى هذه النماذج "نماذج إدراكية"، لأن الإنسان يدرك الواقع من خلالها، وتسمَّى أيضاً "نماذج معرفية"، أي أنها عادةً ما تحتوي على بُعد معرفي (كلي ونهائي). والنماذج (أو الخرائط) الإدراكية والمعرفية تولد إدراكاً مختلفاً من شخص لآخر ومن حضارة لأخرى لنفس الظاهرة[1].

ولقد انتقد "هابرماس" النموذج الوضعي السائد للمعرفة، وبيَّن أنه يمثل أحد نماذج المعرفة البشرية القائمة على تحقيق المصلحة. والواقع أن هذا النموذج المعرفي الذي يهدف إلى التحكم والضبط التقنى قد جَارَ على نموذجين آخرين يقومان على مصالح معرفية أخرى ويعبران عن حاجات وتوجهات تأملية ومعيارية وجمالية وعملية يمكن أن تلقى الضوء على مشكلة "عقلنة" المجتمع. ولذلك يقوم "هابرماس" بتمييز ثلاثة أنواع من المعرفة العلمية المرتبطة بثلاثة أنواع من المصالح البشرية. فالنوع الأول وضعى أو تجريبى – تحليلى يهدف إلى صياغة قوانين عامة يمكن أن تؤدي إلى تنبؤات صادقة يُعتَمَدُ عليها (كما نجد في العلوم الطبيعية). والمصلحة

(١) د. عبد الوهاب المسيري، العالم من منظور غربي، كتاب الهلال، العدد ٦٠٢، فبراير ٢٠٠١، ص ١٥

مكتبة الفكر الجديد

المرتبطة بهذا النموذج المعرفي توصف بأنها "تقنية"، وتقوم على تشكيل موضوع البحث تحقيقاً لأغراض الفعل العقلي الهادف. أما النوع الثاني فيتعلق بالعلوم التاريخية والتفسيرية (الهيرومينويطيقية) التي تتجه لتحليل النصوص والأفعال البشرية وتأويلها. ولما كانت هذه العلوم تقوم على تفهم أفعال التواصل بين البشر، وتتضمن تحليل فهمهم لأنفسهم وللمعايير والقواعد التي يعتمد عليها التواصل، فإن المصلحة المرتبطة بها مصلحة عملية (بالمعنى الذي أراده كانط من هذه الكلمة الأخيرة في فلسفته الأخلاقية النابعة من العقل العملى). وأما النوع الثالث والأخير فيتمثل في العلوم والفلسفات التي تتسم بالتوجه النقدي، وتسترشد أو ينبغي أن تسترشد بتحقيق مصلحة أو اهتمام أساسى هو التحرر والخلاص. ومن العلوم التي تسعى إلى هذا الهدف نقد الأيديولوجيات (المنظومات الفكرية القاطعة) والتحليل النفسى والنظرية النقدية ذاتها، كلها "علوم" تعمل على كشف القوى والمصالح الخاصة التي تشوه فعل التواصل، وتبحث الشروط اللازمة للتوصل إلى إجماع حقيقى لا يعوقه قهر أو قمع داخلى أو خارجى، والتحرر من أشكال السيطرة وأبنيتها[1].

حرص "هابرماس" على "وضع الأنماط المختلفة للمعرفة داخل

(١) د. عبد الغفار مكاوى، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت – تمهيد وتعقيب نقدي، حوليات كلية الآداب، الكويت، الحولية الثالثة عشرة، ١٩٩٣، ص ص ٩٠ – ٢.

مكتبة الفكر الجديد

البناء العميق للخبرة الإنسانية"، مما ينجم عنه أن تغدو المعرفة "توجيهات" عامة ترشد الأوجه المتعددة للبحث وترشد الفعل. والحقيقة إن محاولة ربط المعرفة الإنسانية بالمصلحة تعد تحدياً لأنصار النظرية الكلاسيكية الذين يذهبون إلى أن العلم مستقل عن المصالح البشرية. فلقد أصر أنصار المذهب الوضعي باسم مفهوم الطبيعة الموجودة بصورة مستقلة عن الذات الإنسانية على ضرورة فصل الذات والموضوع أو قل فصل الحياة والمعرفة، أو فصل العلم والممارسة العملية. نهج هذا المنهج أيضاً أنصار المذهب التاريخي. وفي مقابل هذا يحاول "هابرماس" البرهنة على ضرورة مشاركة المصالح الإنسانية في المعرفة وعلى الارتباط الوثيق بين العلم وتطبيقاته العملية. لذلك أهاب "هابرماس" بالتفرقة التي وضعها هوركهايمر[1] بين "النظرية التقليدية" و"النظرية النقدية"، واستحضر

(١) هوركهايمر (ماكس) Max Horkheimer وُلِدَ في مدينة شتوتجارت بألمانيا عام ١٨٩٥، لعائلة ميسورة. درس في جامعات ميونخ وفرايبورج وفرانكفورت. ناقش أطروحة الدكتوراه حول كانط عنوانها (مساهمة في تناقض ملكة الحكم الغائية) عام ١٩٢٢ وتحت إشراف الأستاذ هانزكونيليوس H. Comelius أصبح عضواً بهيئة التدريس في جامعة فرانكفورت، ثم أصبح أستاذاً لكرسي الفلسفة الإجتماعية عام ١٩٢٩. أصبح رئيس معهد البحوث الإجتماعية عام ١٩٣١، خلفاً لكارل جرونبيرج. ومع وصول النازية إلى الحكم في ألمانيا انتقل إلى سويسرا ثم إلى أمريكا عام ١٩٣٤. وبعد عودته إلى ألمانيا عام ١٩٤٨ استعاد موقعه في جامعة فرانكفورت. مات عام ١٩٧٣. من أهم مؤلفاته: النظرية النقدية، كسوف العقل، جدل التنوير، نقد العقل الأداتي. وتحت إشراف ألفرد شميث صدرت أعماله

مكتبة الفكر الجديد

أيضاً الكشف الذي توصل إليه هوسرل[1] لحياة العالَم بوصفها

الكاملة في عدة مجلدات.

[انظر: سليمان خالد المخادمة، نقد ماكس هوركهايمر للأيديولوجيا، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد ٧٠، السنة الثامنة عشرة، ربيع ٢٠٠٠، هامش ص ١١٥.]

(١) (هوسرل) أدموند Edmund Husserl فيلسوف ألماني، مؤسس منهج الظاهريات. وُلِدَ في ٨ أبريل سنة ١٨٥٩ في مدينة Prossnitz (في إقليم مورافيا)، وتوفي في ٢٧ أبريل سنة ١٩٣٨ في مدينة فرايبورج – آن – برايسجاو Freiburg- in- Breisgau (في جنوب غربي ألمانيا).

بدأ بدراسة الرياضيات في ألمانيا على يدي الرياضي الألماني العظيم فايرشتراس Weierstrass. ثم واصل دراسته في جامعة ڤيينا، حيث وقع تحت تاثير فرانتس برنتانو، الذي وجّهه إلى دراسة الفلسفة.

وهو من أسرة يهودية، لكنه اعتنق المسيحية البرتوستنتية في سنة ١٨٨٧، وعين مدرساً مساعداً Privatdozent في جامعة هلّه Halle في سنة ١٨٨٧. ثم صار أستاذاً في جامعة جيتنجن Göttingen في سنة ١٩١٠. وابتداءً من سنة ١٩١٦ صار أستاذاً في جامعة فرايبورج- ان- برايسجاو حتى سنة ١٩٢٨.

وقد خلّف بعد وفاته قدراً هائلاً من الصفحات المخطوطة التي لم ينشرها إبّان حياته، بلغت أكثر من ٤٥٠٠٠ صفحة، والكثير منها معدّ للنشر، والباقي غير مكتمل تماماً. ويجري العمل على نشر ما يمكن نشره منها في مدينة لاهاى في هولندا عند الناشر Nijmhof، وهذه المخطوطات محفوظة في لوفان في Husserl-Archiv، وقد أنشيء مركز محفوظات آخر في كولونيا بألمانيا منذ سنة ١٩٥١ في مكتبة جامعة كولونيا Köln.

من مؤلفاته:

"فلسفة علم الحساب" Philosophie der Arithmetik, Halle, 1891

"أبحاث منطقية" Logischen Untersuchungen, 3 Bde., 1900

"الفلسفة علماً دقيقاً" Philosophie als strenge Wissenschaft, Logos Bd. ١: ١٩١١ ترجمه إلى العربية الدكتور محمود رجب.

"أفكار لإيجاد ظاهريات محضة وفلسفة ظاهرياتية" Ideen zu einer reinen Phänomenologie und Phanomenologischen Philosophie, 1913

"محاضرات في ظاهريات الشعور الباطن بالزمان" Voslesungen zur Phanom-

أساس العلوم، وذلك حتى يستطيع أن يطرح من جديد مسألة الصلة الملغاة بين المعرفة والمصلحة interest. ذلك أن جميع العمليات المعرفية تقوم على أساس اهتمامات مرشدة تبقى عادةً دون اعتراف بها. لقد أراد "هابرماس" التأكيد من ثمَّ أن المعرفة الإنسانية لا يمكن أن تنفصل عن المصلحة وهذا يبين أنه كان يحاول أن يكشف جذور المعرفة بداخل مجال الحياة الإنسانية، وهذا بدوره يؤكد لنا أنه كان حريصاً على أن تكون ثمَّة علاقة بين النظرية والعمل[1].

---

enologie des inneren Zeitbe-wusstseins, herausg. Von M. Heidegger, in Jahrbuch fur philos. Und Phänomenolog. Forschung, Bd. 1X, 1928

Formale und transzendentale Logik, Halle "المنطق الصوري والمتعالي" 1929

Die Krisis der europäischen "أزمة العلوم الأوروبية والظاهريات المتعالية" Wissenschaften und die transzendentale Phänomenologie. Eine Einleitung in die Phänmenologische Philosophie, in Philosophia, Bd. 1, 1936

Erfahrung und Urteil, Prag 1939 "التجربة والحكم"

Husserliana, Edmund Husserl, Gesammelte Werk: Bd "مجموع مؤلفاته": 1: Cartesianische Meditationen und Parise Vorträge, Haag, 1950

II: Die Idee der Phänomenologie, Haag,1950 "تأملات ديكارتية" وترجمته إلى العربية الدكتورة نازلي اسماعيل حسين.

VII: Erste Philosophie, Haag, 1959, Méditations "محاضرات في باريس" Cartésiennes, Paris 1932.

[انظر: د. عبد الرحمن بدو، موسوعة الفلسفة، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٤، ص ص ٥٣٨ - ٩ و٥٤٣]

(١) د. محمود سيد أحمد، البراجماطيقا عند هابرماس، دار الحضارة للطباعة والنشر، طنطا، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٤، ص ص ١٢ - ١٣

مكتبة الفكر الجديد

يضع هابرماس على عاتقه، إذن، مهمة كشف الغطاء عن الوهم العلمي والتقني الذي يجعل النموذج التكنوقراطي النموذج الأسمى في العلاقة بين القرار السياسي والمعرفة العلمية. ويرى أن التكنولوجيا تضفي على الأشياء صفة الأدوات وتحيلها إلى مجرد وسائل فتنقلب بذلك إلى عائق أمام التحرر إذ يتحول الإنسان نفسه فيها إلى أداة. ويعترض على النـزعات الوضعية بخصوص موقفها من العلوم التجريبية؛ ودورها الأيديولوجي كنـزعات تضفي صفة الشرعية على أشكال الرقابة والقمع في المجتمع الصناعي المتقدم برفعها شعار "حيـاد" العلم والتقنية وبراءتهما، ومناداتها بضرورة توفر ذلك حتى في العلوم الإجتماعية كشرط للحاقها بركب العلوم الدقيقة. وهو شرط يتجاهل خصوصية العلوم الإجتماعية ونوعية أساسها الإبستمولوجي، كما يتغافل عن المحدودية المنهجية والمفاهيمية والإجرائية لكل حقل علمي. ومن ثمَّ يؤكد هابرماس أنه لا حياد في الممارسة العلمية إذ كل نمط من أنماط المعرفة يخضع لتوجيه مصلحة معينة. ومن أجل الكشف عن المصالح الكامنة خلف كل نشاط معرفي تتعين ممارسة النقد في بعده الاستكشافي الحفري. وهو أمر لا تسعف الباحث فيه سوى العلوم الإجتماعية المسلحة

مكتبة الفكر الجديد

بأعمال فرويد ونيتشه وماركس[١]. يقول "هابرماس":

"منذ الربع الأخير للقرن التاسع عشر يُلاحظ في البلدان الرأسمالية الأكثر تقدماً توجهان تطوريان: ١- وجود بعض التوجهات التطورية تفضي إلى ترابط متبادل ومتزايد بين البحث والتقنية والذي جعل من العلوم قوة الإنتاج الأولي. وتقوض هذه التوجهات ذلك التوافق للإطار المؤسساتي والأنظمة الفرعية للفعل العقلاني الغائي، والذي كانت الرأسمالية الليبرالية قد تميزت به. وبالتالي تسقط الشروط ذات الصلة لتطبيق الاقتصاد السياسي التي كان ماركس قد وضعها، فيما يتصل بالرأسمالية الليبرالية. أما بالنسبة لتحليل ذلك التوافق المتغير، فإن إطروحة ماركيوز الأساسية القائلة إن التقنية والعلم يضطلعان اليوم بوظيفة مشروعية السيادة، تقدم المفتاح، فيما اعتقد"[٢].

اهتم "هابرماس" بمشكلة العلاقة بين النظرية والعمل، مقرراً أن النظريات التي تساعد على توضيح مسائل عملية تتفق مع الفعل التواصلي، ومشيراً إلى أن النظرية يجب ألا تكون بمعزل عن الحياة. ويذهب إلى أن هناك ثلاث نواح تتبدي فيها العلاقة الوثيقة بين النظرية والعمل، أولها الجانب الابستمولوجي للعلاقة بين

(١) ـ الم يَـفوت، هابرماس ومسألة التقنية، ص ٤.

(٢) هابرماس (يورجين)، التقنية والعلم كأيديولوجيا، ترجمة د. إلياس حاجوج، منشورات وزارة الثقافة - الجمهورية العربية السورية، دمشق، ١٩٩٩، ص ٩٨.

مكتبة الفكر الجديد

المعرفة الإنسانية والمصلحة. وثانيها الجانب التجريبي للعلاقة بين العلم والسياسة في الأنساق الإجتماعية الرأسمالية المتقدمة، ويرى "هابرماس" أن الارتباط الوثيق بين السياسة والعلم بدا واضحاً عند "هوبز" فقد ارتبطت السياسة عنده بمنهج صارم للبحث وبتصور ميكانيكي للعالم، وهدف السياسة عنده تأسيس الشروط العامة لنظام المجتمع والدولة. وثالثها الجانب المنهجي لنظرية اجتماعية تهدف إلى افتراض دور النقد، النقد المرتبط بغاية عملية وهي تحرير الذات والخلاص[١].

إن ما يميز الحضارة الصناعية المتقدمة هو خضوعها لأشكال من الرقابة المتعددة المستويات التي تندرج جميعها في عداد العقلنة والتخطيط والترشيد المتوخية كلها تحقيق "غايات" و"أهداف" معقولة. ويؤكد هابرماس أن "العقلنة" المتزايدة للمجتمع تتم بموازاة مع عملية إضفاء صبغة المؤسسة على التقدم العلمي والتقني. فبقدر ما يتدخل العلم والتقنية في مؤسسات المجتمع ويفقدها طابعها كمؤسسات، بقدر ما تغدو الإنتاجية هي المعبئ الوحيد للمجتمع وتضع نفسها فوق كل مصلحة[٢].

(١) د. محمود سيد أحمد، البراجماطيقا عند هابرماس، دار الحضارة للطباعة والنشر، طنطا، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٤، ص ٨.

(٢) سالم يَـفوت، هابرماس ومسألة التقنيّة، ص٤.

مكتبة الفكر الجديد

وهكذا يرى هابرماس أن خلف هذه "المعقولية" المظهرية ثمَّة إرادة سياسية كامنة تسعى إلى توسيع مجال السيطرة وعقلنته. فكل عقلانية تكنولوجية يحايثها منطق للسيطرة يتمثل في إخضاع الإنسان لنظام الأشياء. فطالما أن معقولية من هذا القبيل تقوم على وضع الخطط والاختيار بينها بحثاً عن أفضلها، واستخدام التكنولوجيا الملائمة وتهييء الأنظمة المناسبة والمواتية، لبلوغ غايات ثابتة ومحددة، فإنها تبقى شيئاً يتم في غفلة عن التفكير وفي خلسة من المصالح الإجتماعية الكبرى. معقولية من هذا القبيل، لن تخدم سوى علاقات التسيير والتحكم التقني؛ إنها تفترض نوعاً من السيطرة على الطبيعة أو على المجتمع. ذلك أن النشاط العقلي حينما يطرح لنفسه غايات يتحول إلى رقابة. لذا فإن "عقلنة" شروط الحياة تعني في نهاية الأمر تحويل السيطرة إلى مؤسسة لها شرعيتها، والتي لا يُنتبه إلى أنها شرعية سياسية[1].

في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة صناعياً، تتجه السيطرة إلى أن تفقد طابعها القمعي الهيمني لتتحول إلى نوع من السيطرة "المعقلنة" دون أن تتخلى، مع ذلك، عن طابعها السياسي أو تفقده. لكن الطابع القمعي لا يختفي كلية، بل يتخذ لنفسه مظاهر وتجليات

(١) المرجع السابق، ص ٧.

مكتبة الفكر الجديد

تتمثل في خضوع الأفراد ورزوحهم تحت نير جهاز الإنتاج والتوزيع واندماجهم الكلي في منطقه..إلا أن الأفراد لا يعون بالجوهر القمعي لكل ذلك لأنه يضفي على نفسه رداءً جديداً من الشرعية مفاده الزعم بأن السيطرة على الطبيعة والتحكم في الإنتاجية المتزايدة هو ما سوف يضمن للأفراد حياة تسودها الرفاهية[١].

لقد فاق تعاظم قوى الإنتاج، الذي هو أحد ميزات التقدم العلمي والتقني المعاصر، كل النسب والحدود. ومبادئ العلم الحديث قد رُكِبَت وبُنِيَت، مسبقاً، على نحو يمكن معه استخدامها كأدوات مفاهيمية من طرف عالَم الرقابة الإنتاجي الذي يجدد نفسه بصفة أوتوماتيكية. وكان من نتيجة ذلك أن اندمجت النزعة الإجرائية النظرية بالنزعة الإجرائية العملية وامتزجت بها. وهكذا قدم المنهج العلمي، الذي فتح الباب على مصراعيه أمام السيطرة الفعالة على الطبيعة، مفاهيم محضة، ولكنه قدم أيضاً مجموع الأدوات التي سهلت سيطرة الإنسان على الإنسان على نحو مطرد الفاعلية من خلال السيطرة على الطبيعة. ولقد أصبح العقل النظري، بمحافظته على بقائه وحياده، خادماً للعقل العملي. ولقد كان هذا التلاقي مفيداً لكليهما. واليوم ما تزال السيطرة قائمة، ولقد أخذت طابعا

(١) المرجع السابق، الموضع نفسه.

مكتبة الفكر الجديد

أكثر شمولاً بفضل التكنولوجيا، وبوجه خاص بوصفها تكنولوجيا. فالتكنولوجيا تبرز ابتلاع السلطة السياسية من خلال امتدادها إلى كل دوائر الثقافة[١].

إن التكنولوجيا المعاصرة تضفي صيغة عقلانية على ما يعانيه الإنسان من نقص في الحرية، وتقيم البرهان على أنه يستحيل "تقنياً" أن يكون الإنسان سيد نفسه وأن يختار أسلوب حياته. وبالفعل إن نقص الحرية لا يطرح نفسه اليوم على أنه واقعة لا عقلانية أو واقعة ذات صبغة سياسية، وإنما يعبر بالأحرى عن واقع أن الإنسان بات خاضعاً لجهاز تقني يزيد من رغد الحياة ورفاهيتها كما يزيد من إنتاجية العمل. إن العقلانية التكنولوجية لا تضع شرعية السيطرة موضع اتهام، وإنما هي بالأحرى تحميها، والأفق الأداتي البراجماتي النزعة للعقل يقود إلى مجتمع شمولي مستبد وقد اصطبغ بصبغة عقلانية. إن "العقلنة" في هذا المجال، التقني والأداتي، لن تُفْهَم حقيقتها، حسب هابرماس، إلا في المعنى الفرويدي: عقلنة الكبت والسيطرة عليه[٢].

(١) سالم يَفوت، هابرماس ومسألة التقنية، ص٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٩.

مكتبة الفكر الجديد

العلم والتقنية

من الثابت أن ظاهرة الترابط بين العلم والتقنية اكتسبت في حالة العلم الحديث أبعاداً نوعية جديدة، بحيث بات من الصعب فعلاً تمييز الحدود الدقيقة التي تفصل سيرورة العلم النظري عن سيرورة التطور التقني. ويمكننا أن نشير هنا إلى مظهرين أساسين يعبران في تكاملهما عن طبيعة التأثير المتبادل الذي يحكم العلم النظري والتطورات التقنية. من جهة أولى يُلاحظ أن تقدم العلم النظري نفسه أصبح في العصر الحديث متوقفاً إلى حد بعيد على ما يتحقق من تقدم في حقل التطور التقني وأن إنجازات العلم تمر عبر إنجازات التكنولوجيا، حيث تقدم التكنولوجيا "تغذية ارتجاعية" للعلم النظري عن طريق تزويده بالأجهزة والآلات التي باتت تتحكم بتحديد سقف إمكانات التقدم ضمن هذا الفرع العلمي أو ذاك[1]. لقد أصبحت التقنية في

(١) عماد هرملاني، العلم والأيديولوجيا - دراسة في إشكاليات منهج البحث العلمي، منشورات دار معد للطباعة والنشر والتوزيع، سورية - دمشق، الطبعة الأولى،

مكتبة الفكر الجديد

عصرنا الحاضر متقدمة إلى حد مذهل بفضل ارتكازها على أساس من البحث العلمي، كذلك أحرز العلم قدراً كبيراً من نجاحه السريع بفضل مساندة التقنية: إذ إن التقنية هي التي تعطيه أجهزة أدق، وأدوات أفضل للبحث، وطرقاً أكثر فعالية لاختزان المعلومات واستعادتها بسرعة فائقة[١]. وباختصار، فإن هذا الامتزاج والتأثير المتبادل بين العلم والتقنية أدى إلى صعوبة ترسيم الحدود بينهما[٢].

والواقع أن هذه الظاهرة نفسها لا تخلو من دلالة ذات مغزى بالنسبة إلى موضوع هذا البحث الذي نقوم به، فموقف الخضوع الذي يجد العلم النظرى نفسه مضطراً لاتخاذه بالنسبة إلى الدرجة التي وصل إليها مستوى التطور التقنى يدلل بحد ذاته على أن للموقف العلمي جذوراً تمتد إلى خارج ساحة النشاط النظرى الخالص التي يقيمها لنفسه. وتزداد هذه الدلالة وضوحاً عندما نأخذ في اعتبارنا الصلات التي تقرب بين مستوى التطور التقني ذاته وبين أبرز العناصر الفاعلة في تحقيق النمو الإجتماعي العام. حيث يمكننا أن نجد في خضوع العلم لمستوى التطور التقني خضوعاً في العمق لشروط يمليها

١٩٩٥، ص ١١١.

(١) د. فؤاد زكريا، التفكير العلمي، ص ١٨٦.

(2) Garvin McCain and Erwin M. Segal: The Game of Science, 5th Edition, Pacific Grove, California, 1988. p. 169.

مكتبة الفكر الجديد

مستوى التطور الإجتماعي ذاته[١].

أما المظهر الثاني الذي يميز علاقة الترابط بين العلم النظري والتطبيقات التقنية في العصر الحديث فإنه يتجلى في ظاهرة ضيق المسافة الزمنية التي كانت تفصل في الماضى بين ظهور الاكتشاف العلمي وبين دخوله حيز التطبيق التقني. فالأمر الذي يلفت النظر في عصرنا الحالي هو أن البحوث الأساسية، التي لها طبيعة نظرية خالصة، تتحول في أقصر وقت إلى تطبيقات إنتاجية. فالمسافة الزمنية بين ظهور البحث النظري واكتشاف تطبيقاته العملية قد قلت إلى أبعد حد في عصرنا الحالي. وقد أجرى بعض العلماء مقارنة بين الفترات الزمنية التي كان يستغرقها الوصول من الكشف العلمي النظري إلى التطبيق في ميدان الإنتاج، منذ عصر الثورة الصناعية حتى اليوم، فتبين لهم ما يلي: "احتاج الإنسان إلى ١١٢ سنة (أي من عام ١٧٢٧ إلى ١٨٣٩) لتطبيق المبدأ النظرى الذي يبنى عليه التصوير الفوتوغرافي، وإلى ٥٦ سنة (أي من ١٨٢٠ حتى ١٨٧٦) لكي يتوصل من النظريات العلمية الخالصة على اختراع التليفون، وإلى ٣٥ سنة (من ١٨٦٧ إلى ١٩٠٢) لظهور الاتصال اللاسلكي، وإلى ١٥ سنة (من ١٩٢٥ إلى ١٩٤٠) للرادار، و١٢ سنة (من ١٩٢٢ إلى ١٩٣٤) للتليفزيون، و٦

(١) عماد هرملاني، العلم والأيديولوجيا – دراسة في إشكاليات منهج البحث العلمي، ص ١١١ – ١٢.

مكتبة الفكر الجديد

سنوات (من ١٩٣٩ حتى ١٩٤٥) للقنبلة الذرية، وخمس سنوات (١٩٤٨ - ١٩٥٣) للترانزستور، وثلاث سنوات (١٩٥٩ - ١٩٦١) لإنتاج الدوائر المتكاملة"[١].

ومن المؤكد أن طول أو قصر المدة الزمنية التي يحتاج إليها الانتقال من الأساس النظري لكشف معين على ظهور الاختراع الفعلي، يتوقف على عوامل متعددة: من بينها مدى الحاجة الإجتماعية إلى هذا الاختراع، ومقدار الوقت والجهد والمال الذي يبذل من أجل التوصل إليه. فمشروع إنتاج القنبلة الذرية، مثلاً كان مشروعاً حيوياً خلال فترة حرب قاسية، بل كان مسألة حياة أو موت، وكان يمثل سباقاً رهيباً مع الزمن حتى لا يظهر هذا السلاح الفتاك عند النازيين فيصبح أداة لتحقيق أحلام دكتاتور مجنون مثل هتلر، ومن هنا كرست له موارد أغنى دول العالَم، وأعطيت له أولوية مطلقة على ما عداه من المشروعات، وتفرغ له أعظم علماء الطبيعة في القرن العشرين. ولكن من الصحيح، رغم هذا كله، أن الشقة تضيق تدريجياً بين العلم النظري والتكنولوجيا التطبيقية كلما اقتربنا من العصر الحاضر[٢]. ومنذ بدأ العلم، كانت الحرب هي أقوى حافز للتقدم التقني[٣].

---

(١) د. فؤاد زكريا، التفكير العلمي، ص ١٨٤ - ٥

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٥.

(٣) رسل (برتراند)، أثر العلم في المجتمع، ترجمة محمد الحديدي، الهيئة المصرية

مكتبة الفكر الجديد

وعلى أية حال، فإن ما يهمنا من هذا كله هو أن العصر الحالي يشهد تداخلاً وثيقاً بين العلم والتكنولوجيا، زالت معه الحواجز الزمنية التي كانت تفصل بينهما في الماضي، وظهرت في ظله أنواع جديدة من البحوث العلمية التي تجمع بين الأسس النظرية والجوانب التطبيقية في آن واحد. ونتيجة هذا هي أن العلم أصبح هو الأساس المؤكد لكل تحول تقني، وأن ما كان يقوم به الصانع المخترع أصبح يقوم به الآن عالِم تطبيقي متخصص[1].

يحتل العلم في وقتنا الحاضر مكانة مرموقة، فالمعارف العلمية لم تبق سجينة المعاهد العلمية، بل أصبحت متداولة في مختلف الأوساط؛ إنها تنفذ، بشكل أو بآخر، إلى قلب حياتنا اليومية لتحدد تصورنا للعالَـم وتوجه تعاملنا مع الأشياء. وأكثر من ذلك، فإن المعرفة العلمية أصبحت تعتبر نموذجاً للحقيقة، كما أصبحت صفة "علمي" مرادفةً لصفة "حقيقي". هكذا أصبحنا نتكلم عن "التحليل العلمي" و"الخطة العلمية" حتى في ميادين بعيدة عن العلم. واقترنت سيطرة العلم في عصرنا الحاضر بسيطرة التقنية. ولا شك أن العلاقة الوثيقة والمتعددة الأبعاد بين العلم والتقنية تسمح بالحديث عن توجه أو أسلوب علمي- تقني يسود عصرنا الحاضر ويتغلغل في كل

العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٣٠.

(١) د. فؤاد زكريا، التفكير العلمي، ص ١٨٦.

مكتبة الفكر الجديد

ميادين الحياة البشرية. ويمكن القول إن سيادة هذا التوجه العلمي-التقني هو السمة الأساسية لعالَـم اليوم[١].

وإذا كان الأمر كذلك، فإنه سيكون على الفلسفة، لكي تسهم في فهم عالَـم اليوم، أن توجه نظرها نحو هذا التصور العلمي-التقني لفحص أسسه وكشفه واستطلاع آفاقه. ونظراً لأن علم الطبيعة الرياضي يتخذ بالنسبة لهذا التصور دلالة حاسمة، فإن التأمل حوله سيكون ضرورياً لفهم العصر الذي نعيشه. ولكن، لكي يساهم هذا التأمل في فهم عالَـم اليوم، يجب ألا يكتفي بتناول هذا العلم كمجرد بناء نظري مستقل وقائم بذاته؛ بل يجب، من جهة، أن ينظر إليه في علاقته بعالَـم الحياة اليومية وفي مختلف أشكال التجربة البشرية، ومن جهة أخرى، أن يأخذ بعين الاعتبار سياقه التاريخي[٢]. إن العلم بحكم طبيعته هو فرع من فروع الثقافة كالفلسفة والشعر، وينتسب تاريخياً إلى أبوين شرعيين أحدهما هو الاعتقاد في إطراد الطبيعة - وهو الاعتقاد الذي نشأ عن الإيمان الديني بعقيدة التوحيد[٣] monotheism - والآخر هو

(١) إسماعيل المصدق، الفلسفة في عصر العلم والتقنية - نظرة فينومينولوجية، مجلة "فكر ونقد" على الإنترنت، العدد العاشر- الموضوع الثالث:
http://www.fikrwanakd.aljabriabed.net/n10_03musaddak.htm

(٢) المرجع السابق، ص ١.

(٣) توحيد Monotheism مذهب يقول بإله واحد تُـرَد إليه الأمور جميعها، ويقابل الثنوية وتعدد الآلهة.
[انظر: العجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية،

مكتبة الفكر الجديد

حرية الفكر والتعبير الذي يُعَد ثمرة من ثمار عصر النهضة[١].

لا شك أن قيمة التحليلات التي قدمها كل من هوسرل (١٨٥٩-١٩٣٨) وهيدجر (١٨٨٩-١٩٧٦) لعلم الطبيعة الرياضي انطلاقاً من منظورهما الفينومينولوجي، تعود إلى أنها تراعي، بكيفية صارمة، هذين الاعتبارين. لهذا، يبدو أنه من الممكن الاقتراب من الوضعية الراهنة المتميزة بسيطرة التوجه العلمي- التقني عن طريق المقارنة بين تحليلات هذين الممثلين المبارزين للفينومينولوجيا، إلا أن هذه المقارنة لا تهدف أساساً إلى بيان نقط الاتفاق والاختلاف بين المفكرين، أو إلى البحث عن موقف جاهز إزاء التوجه العلمي- التقني السائد؛ بل ترمي، قبل كل شيء إلى الاحتكاك بالكيفية التي تعامل بها كل منهما مع الوضعية الراهنة، والاقتراب بذلك من رؤية المشاكل التي تطرحها هذه الوضعية[٢].

لقد أراد هوسرل أن يشيد صرح العلم على أسس نهائية حاسمة، بحيث يرتفع ككل بناء متين حجراً فوق حجر وفقاً لخطة موجهة. فكان عليه إذن أن يبدأ من حيث تجب البداية الحقيقية. ولابدّ

القاهرة، ١٩٧٩، ص ٥٧.]

(1) Hallsham, Viscount, Science and Politics, Faber and Faber Limited, London, 1963, pp. 13 – 4.

(٢) إسماعيل المصدق، الفلسفة في عصر العلم والتقنية - نظرة فينومينولوجية، ص٢.

مكتبة الفكر الجديد

لذلك أن يسبقه تقويض لكل ما يحول دون هذا التشييد. ولا يعني هذا سوى أن ندع أنفسنا للشك في كل ما أُقيم وأن نهتدي إلى الفينومينولوجيا التي يؤثر أحياناً وصفها بأنها علم للأصول أو البدايات (أركيولوجيا) التي لابدّ أن تكون راديكالية[١] الطابع في تعقبها للجذور[٢].

إن تصور العلم الذي يبدأ منه هوسرل هو تصور أفلاطون وديكارت والنزعة العقلية في القرن السابع عشر عامةً للعلم. وهذا

---

(١) الراديكالية Radicalism هي الميل إلى إخضاع الأنظمة والترتيبات القائمة لتساؤلات نقدية مع الاستعداد للدعوة إلى إصلاح أو حتى إزالة تلك الترتيبات إذا ما ثبت عدم استنادها إلى مباديء محددة تبرر وجودها. ومن ثمَّ، فإن العديد من علماء السياسة يعتبرون الراديكالية موقف أو توجُّه أكثر منها عقيدة سياسية. والموازاة المعتادة بين الراديكالية من جانب والتطرف من جانب آخر لا تبعد عن الصواب، وإن كانت وجهة النظر الأخرى التي عادةً ما تربط بين الراديكالية واليسار غير سليمة تماماً ذلك أن الراديكالية قد تكون أيضاً ناحية اليمين، فهذا يتوقف على طبيعة الأفكار ووجهات النظر التي تتبناها وتحاول أن تصل بها إلى مداها الأقصى ويتوقف أيضاً على طبيعة المؤسسات التي يتناولها الراديكاليون بالمعارضة النقدية والراديكالية في ميدان السياسة هي ضد المحافظة ذلك أنها تؤمن بأن التحرك السياسي يمكنه أن يصلح من أوضاع الأفراد في المجتمع وذلك على خلاف المذهب المحافظ الذي يرى أن أثر الحركة السياسية في تحسين الأوضاع البشرية داخل المجتمعات السياسية أثر محدود جداً على أحسن تقدير.
[انظر: موسوعة العلوم السياسية، جامعة الكويت، تحرير محمد محمود ربيع واسماعيل صبرى مقلد، الجزء الأول، ١٩٩٤، ص ٢٨٨.]

(٢) د. صلاح قانصو، الموضوعية في العلوم الإنسانية – عرض نقدي لمناهج البحث، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٤، ص ٢١٧

مكتبة الفكر الجديد

التصور الذي يتوجه نحو الأسس الأولى والمعايير اللامشروطة، يختلف من حيث الأساس عن التصور الحديث عن العلم التجريبي، بل ويختلف عن التصور الحديث للعلم عموماً. فالعلم بالمعنى الأفلاطوني هو العلم المطلق، هو المعرفة المطلقة épistémé، ويتميز أساساً بأنه حدس للماهيات. وعند هوسرل أن الظاهريات تقوم على حدس الماهيات في مقابل العلوم التجريبية التي تقوم على الوقائع[1]. ولا يتم هذا الحدس إلا في إطار قصدية الشعور، فهي عملية اكتشاف للموجودات وليست عملية استنباط أو استدلال لأنها تسبق كل استنباط. أما المستوى المعياري Standard الذي يحظى بالمشروعية عند هوسرل فهو "الرد" Reduction وهو ألا نزعم شيئاً لا نستطيع أن نجعله جلياً لأنفسنا بالرجوع إلى الوعي وعلى نحو محايث خالص. فالرد هو المنهج الرئيسي الذي يحدد المجال المميز للفينومينولوجيا ويثير المشكلات في نطاقه ويضع المبادئ الأساسية. ففيه يبدو لنا العالَـم كظاهرة مباشرة للشعور الخالص، وتتجلى ماهية الشعور بوصفها شعوراً بشيء ما، وهنا تتعين مهمة الفينومينولوجيا كوصف وبنية الشعور الخالص في علاقته بموضوعات العالَـم، واستخلاص معنى الظواهر بإرجاعها إلى البنية المقابلة لها من الشعور الخالص.

(١) د. محمود رجب، تقديمه لترجمته العربية لكتاب هوسرل: الفلسفة علماً دقيقاً، المجلس الأعلى للجامعات، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٦.

مكتبة الفكر الجديد

ومعنى هذا بعبارة أخرى أن البحث لابد أن يبدأ من خبرة الذات وما لديها من بديهات، فهي الأساس الوحيد الذي يرفض قبول أبسط الاعتقادات دون مناقشة، ولا ينطوي على أية عناصر تفسيرية تمليها الافتراضات الساذجة التي لم تصدر عن تأمل الذات منعكسة على نفسها، فلابد إذن من العودة إلى الذات حتى يستطيع الفيلسوف في داخل ذاته تقويض جميع العلوم المسلَّم بها حتى الآن، ثم يعيد بناءها من جديد، ومن ثمَّ ينبغي عليه أن يكتسب علمه الخاص على الرغم من اتجاهه نحو الكلية، وأن يكون قادراً على تبريره من الأصل، وفي كل مرحلة بالاستناد إلى الحدوس المطلقة[1].

وبهذا يمكن أن نحقق في نهاية الأمر نموذج العلم الأصلي الذي يقوم على أسس يقينية على الإطلاق، أي العلم الكلي، ولا يتأسس هذا التصور للعلم عن طريق عملية تجديد مقارنة تتخذ من العلوم المعطاة في الواقع نقطة بدء لها. فلا توجد أية هوية بين هذه العلوم بالمعنى الحقيقي. فالمبدأ المنهجي الأول لديه هو ألا أطلق أي حكم ولا حتى أن أسلِّم بصحة أي حكم إن لم أكن استمددته من البداهة، أي من "التجارب" التي تكون فيها "الأشياء" والوقائع المطلوبة حاضرة هي ذاتها. وعندئذ ينبغي أن أنعم النظر في البداهة التي نحن بصدد السؤال

(١) د. صلاح قانصو، الموضوعية في العلوم الإنسانية – عرض نقدي لمناهج البحث، ص ٢١٨ – ٩.

مكتبة الفكر الجديد

عنها، وأن أقدِّر مدى استخدامها، وأن أجعل حدودها ودرجة كمالها أموراً بديهية بالنسبة لي، أي أنه يجب عليّ أن أتبين بأية درجة تكون الأشياء معطاة هي ذاتها في الواقع. وطالما أن البداهة تكون ناقصة فلا يمكن أن أطمع في معرفة أي شيء معرفة نهائية، وعلى الأكثر فكل ما في وسعي هو أن أنسب إلى الحكم قيمة المرحلة المتوسطة الممكنة في الطريق المؤدية إليها[١].

تكمن أزمة علم الطبيعة، بل وأزمة كل العلوم الحديثة وحتى الفلسفة، حسب هوسرل، في نسيان عالَـم الحياة اليومية كأفق لكل ممارساتنا. هذا النسيان يزداد تعمقاً مع اكتساح الصياغة الرمزية والصورية لكل حقول المعرفة العلمية. فمع طغيان الطابع الرمزي والصوري للمعرفة العلمية تختفي المعاني والدلالات الأصلية للأشياء وراء رموز فارغة يمكن أن نشتغل عليها وأن نجري عليها عمليات متعددة دون التساؤل عن مضمونها. هكذا يتحول التفكير العلمي إلى نوع من الحساب يتم إجراؤه بكيفية صورية على رموز وقضايا فارغة من أي مضمون يذكر بعلاقتها بالعالَـم اليومي. إن التفكير العلمي يصبح شبيهاً بالنشاط التقني الحرفي الذي يقوم على التمرن والعادة، لا على التأمل والابتكار. يتبين إذن، مع هوسرل،

(١) المرجع السابق، الموضع نفسه.

مكتبة الفكر الجديد

أن العلاقة بين العلم والتقنية الحديثين هي أعمق مما يُعْتَقد عادة، فالتقنية ليست مجرد تطبيق للعلم، بل إن الروح التقنية تسود العلم ذاته كمعرفة نظرية. إن العلوم الحديثة هي في عمقها علوم تقنية[١].

مع طغيان الطابع التقني المنهجي في العلم الحديث يبلغ نسيان عالَـم التجربة اليومية حده الأقصى. وهكذا يسود الاعتقاد بأن العالَـم كما تتمثله القوانين والنظريات العلمية، والذي ليس في الأصل سوى نتاج لإجراءات منهجية تقنية، هو العالَـم الحقيقي، وبأنه موجود باستقلال عن كل وعي. أما عالَـم تجربتنا اليومية فيُنْـظَر إليه كمجرد تعبير ذاتي تقريبي عن العالَـم الحقيقي، ولذلك فهو لا يستحق أن يكون موضوعاً للدراسة العلمية. يرى هوسرل خطورة هذه النزعة الموضوعية التي تسود العلم الحديث في أنها تقود إلى انفصال العلم عن عالم التجربة اليومية[٢].

إن تخلي العلم عن آفاق عالَـم الحياة البشرية يؤدي إلى انفلات البحث العلمي من مسؤولية الإنسان، فالبحث العلمي يتحول إلى عملية لا نهائية تتجسد في إجراءات منهجية تقنية للسيطرة على العالَـم الرياضي اللانهائي ومختلف قطاعاته. هكذا يصبح دور العالِم مقتصراً

(١) إسماعيل المصدق، الفلسفة في عصر العلم والتقنية - نظرة فينومينولوجية، ص٥.
(٢) المرجع السابق، ص ٨.

مكتبة الفكر الجديد

على متابعة قطاع أو مجال من العالَـم، دون أن يكون مضطراً للتساؤل عن علاقة البحث الذي يمارسه بآفاق الحياة اليومية وعن غاياته. إن آفاق العلماء والباحثين تضيق شيئاً فشيئاً، بحيث يبدو في نهاية الأمر كما لو أنهم أصبحوا مجرد أجزاء أو قطع داخل آلة كبرى، تعطي نتائج مفيدة، ولكن دون أن يعرفوا كيف تشتغل هذه الآلة، وما هي علاقتها الأصلية بعالَـم الإنسان. إن البحث العلمي يتجه إلى أن يتحول إلى "شغل" مقسم بكيفية دقيقة إلى مهام جزئية يقوم كل عالِم بإحداها ويكون مسؤولاً عنها هي فقط. يسير هذا الشغل بكيفية أتوماتيكية مستقلة، وذلك دون أن يشعر العلماء بأية ضرورة حية للتساؤل عن سياق المعنى الشامل، أو عن الأفق الذي يندرج فيه كل مشروع بحث جزئي. معنى ذلك أن المسؤولية الشاملة عن سير البحث تخرج من يد العلماء والعلم عموماً[1].

وقد كان من شأن الحرب العالمية الثانية أن أثرت تأثيراً جذرياً في وجهة نظر العلماء. وعلى الرغم من المهارات التقنية التي كان يتمتع بها العلماء، والتكنولوجيون في أمريكا، فإنهم كانوا من الجدة والحداثة بحيث إنهم لم يفكروا في عملهم بلغة القوة الحربية والإجتماعية، فظل تطبيقهم الإجتماعي لمهاراتهم أدخل في باب

(١) المرجع السابق، الموضع نفسه.

مكتبة الفكر الجديد

أعمال الهواة، ولكن "هيروشيما"[١] قد عملت - إلى حد كبير - على تغيير هذا الوضع. وكثيراً ما يقال عن "هيروشيما" إنها كانت بمثابة المعادل للتفاحة في قصة "جنة عدن": فقد وضع أكل هذه التفاحة حداً لعهد البراءة، ومنح الإنسان معرفة بالخير والشر. وليس من شك في أن "هيروشيما" قد أعطت الكثير من العلماء إحساساً جديداً بالمسئولية[٢].

وهنا تثار مشكلة "مسئولية العالِم" في العصر الحاضر. ذلك لأن العالِم كان، تقليدياً، يقوم بالبحث النظرى أو التطبيقى وليس في ذهنه إلا هدف واحد، هو إنجاز ما بدا له. ولكن الوعى المتزايد بالنتائج الأخلاقية والإجتماعية التي يمكن أن تترتب على كثير من الكشوف

(١) هيروشيما Hiroshima مدينة في اليابان. تقع في الجزء الجنوبي الغربي من جزيرة هونشو Honshu، عند الطرف الغربي من البحر الداخلي Inland Sea. ألقى عليها الأميركيون أولى قنابلهم الذرّية (٦ أغسطس ١٩٤٥) فدُمِرَت تماماً، أُعيد بناؤها ابتداءً من عام ١٩٥٠. سكانها ٥٧٥٠٠٠ نسمة. وفي التاسع من أغسطس من العام نفسه (١٩٤٥). ألقى الأميركيون القنبلة الذرية الثانية على مدينة ناجازاكي Nagasaki: التي تقع في الجزء الشمالي الغربي من جزيرة كيوشو Kyushu باليابان. وتطل على بحر الصين الشرقي East China Sea. ظلّت مغمورةً حتى عام ١٥٧١ للميلاد عندما وفدت عليها السفن البرتغالية. سكانها ٤٥٠٠٠٠ نسمة.
[انظر: منير البعلبكي، موسوعة المورد، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨١، المجلد الخامس، ص ١٠٩.]

(٢) فيركيس (فيكتور س.)، الإنسان التكنولوجي - الأسطورة والحقيقة، ترجمة: د. زكريا إبراهيم ويوسف ميخائيل أسعد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٦٦.

العلمية في هذا العصر، جعل من الضروري أن تضاف إلى أعباء العالِم مهمة أخرى، هي أن "يفكر" في تلك النتائج قبل وأثناء قيامه ببحثه، وربما أن يمتنع أصلاً عن مواصلة البحث إذا أيقن بأن نتائجه ستكون وخيمة[١].

ولقد تفاوتت الآراء حول مشكلة "مسئولية العالِم"، فهناك من يضيقون تلك المسئولية إلى الحد الأدنى، فيرون أنها تقف عند حدود معمله أو مختبره، وأن العالِم لا شأن له بما يحدث خارج هذه الحدود. وهناك من يوسعون هذه المسئولية إلى أقصى حد، فيؤكدون أنها تمتد في عصرنا الحاضر إلى المجتمع بأسره. ولكل من الفريقين، وكذلك لمن يقفون موقفاً وسطاً بينهما، حججه التي يدعم بها موقفه. ومن الواضح أننا ميالون إلى تأكيد مسئولية العالِم، وأننا نصفق بحماسة حين نجد عالِماً كبيراً يخرج من إطار عمله العلمي الخالص لكي ينبه الرأي العام إلى خطر يوشك أن يحدثه العلم، أو حماقة تنزلق إليها البشرية نتيجة للتقدم التكنولوجي. ولكن المسألة ليست دائماً بهذه البساطة[٢].

فهناك حالات لا يستطيع المرء أن يكون فيها على يقين من أن

(١) د. فؤاد زكريا، التفكير العلمي، ص ٣٠٦.
(٢) المرجع السابق، ص ص ٣٠٦ – ٧.

مكتبة الفكر الجديد

تدخل العلماء في اتخاذ القرارات الكبرى المتعلقة بمصير المجتمع لابد أن يكون خيراً على الدوام. وهناك دول تولي علماءها وخبراءها ثقة زائدة، وتوكل إليهم أمورها. فالولايات المتحدة الامريكية مثلاً - كانت أول دولة استحدثت وظيفة مستشار علمي للرئيس، كما أنها تقوم بتعيين ملحق علمي للعديد من المهام الدبلوماسية حول العالَم، فضلاً عن لجنة المستشارين الخاصة بالرئيس والتي تضم نخبة من كبار العلماء في كافة التخصصات من داخل الحكومة وخارجها[١]. زمن الملاحظ أن الغالبية العظمى من دول العالم أصبحت تحذو حذو الولايات المتحدة في هذا الشأن.

إن استعانة السياسيين بالعلماء في عصرنا الحاضر أدى إلى الحملة على ما يسمى "بالتكنوقراطية". ولفظ "التكنوقراطية" يعبر عن نوع من أنواع الحكم، كالديمقراطية، التي تعنى حكومة الشعب أو الأغلبية، والأرستقراطية، التي تعني حكومة الأقلية. أما التكنوقراطية فهي حكومة الفنيين الإخصائيين، أو هي بمعنى أوسع سيطرة هؤلاء الفنيين وتحكمهم في اتخاذ القرارات الكبرى في المجتمع. هذا النوع من السيطرة ثبت بالتجربة أنه لم يكن خيراً على الدوام[٢].

(1) Waterman, Alan T., Science and Government, in: Philosophy of Science-The Delaware Seminar, Volume 1, 1961 – 1962, Edited by Bernard Baumrin, Interscience Publishers, p. 312.

(٢) د. فؤاد زكريا، التفكير العلمي، ص ٣٠٧

مكتبة الفكر الجديد

ذلك لأنه قد تبين أن هذا التكنوقراطي، الذي هو في الأغلب عالِم متخصص، أو خبير ذو تجربة واسعة، ينظر إلى الأمور بمنظور أضيق مما ينبغي، ينحصر في إطار اختصاصه وحده. وقد يكون ذلك مفيداً، بل هو بلا شك ضروري في المسائل المتخصصة التي لا تمس إلا نطاقاً ضيقاً من مصالح الناس، أما في المسائل المصيرية، المتعلقة بمصالح المجتمع ككل، فإننا كثيراً ما نجد التكنوقراطيين عاجزين عن تأمل الأمور من منظور شامل، لأن مهمتهم تغلب عليهم، ونظرتهم العلمية المتخصصة تحجب عنهم رؤية الحقائق الكبرى للمجتمع العريض. ومن هنا فإن هؤلاء التكنوقراطيين كثيراً ما يتخذون قرارات ضيقة الأفق، وكثيراً ما يجد المجتمع نفسه مضطراً إلى اللجوء إلى "السياسيين" غير المتخصصين، لكي يصلحوا ما أفسده العلماء الحاكمون، ولكنه يتميز عنهم، على الأقل، بشمول النظرة، وبالإحساس بنبض الجماهير ومعرفة وقع القرارات الحاسمة عليها[1].

وبطبيعة الحال فإن الوضع الأمثل هو أن يكون العالِم ذا وعي سياسي في الوقت نفسه. وهذا أمر يتحقق بالفعل لدي عدد من العلماء الكبار الذين يفخر بهم عصرنا هذا، والذين لم يمنعهم

(١) المرجع السابق، ص ٣٠٧ – ٨.

مكتبة الفكر الجديد

عملهم العلمي الشاق، وانهماكهم في كشوفهم الحاسمة، من أن يمتدوا بنظرتهم بحيث تتسع لمشاكل العالِم الكبرى، وتدرك وضع الإنسان في المجتمع المعاصر، وتنفذ إلى الأسباب العميقة للأزمات التي يعانيها، وإلى الحلول الفعالة لهذه الأزمات. ولكن أمثال هؤلاء العلماء قلة، والغالبية الساحقة تنشغل بعملها العلمي إلى الحد الذي يحجب عنها رؤية كثير من حقائق العالم المحيط به. ومن الصعب أن يعيب المرء على هذه الغالبية قصور نظرتها في الأمور المتعلقة بالسياسية والأوضاع الإجتماعية ومشكلات الإنسان، إذ إن العمل العلمي يزداد تعقيداً على الدوام، ومن الطبيعي أن يكون في المشكلات المهنية الخاصة ما يشغل العالِم بما فيه الكفاية. ومع ذلك كله فإن العالِم في عصرنا الحاضر ينبغي أن يكون لديه حد أدنى من الوعي بالنتائج المترتبة على عمله العلمي، وهذا يرجع إلى أن طبيعة العلم ذاتها قد أصبحت تقتضي ذلك. فحين تتغير وظيفة العلم، من نشاط لا يؤثر إلا تأثيراً محدوداً، إلى نشاط مصيري يمتد تأثيره إلى كافة جوانب الحياة البشرية، يكون من الطبيعي أن تتغير نظرة المشتغل به، من الإطار المهني الضيق، إلى الميدان الإنساني الشامل[1].

يبقى من الثابت أن توجيه العلم نحو خدمة الأغراض

(١) المرجع السابق، ص ص٣٠٧ - ٨.

مكتبة الفكر الجديد

العسكرية وبالصورة الصريحة والمباشرة التي يتسم بها هذا الوضع خلال المرحلة المعاصرة، لم يعد يترك أي مجال للحديث عن حياد العلم واستقلاله عما يدور في ساحة الصراعات الأيديولوجية. ومن هذه الزاوية يمكن القول بأنه مهما أمعن رجال العلم في تأكيد حرصهم على تحصين أبحاثهم من شبهة التأثر بمدخلات الخيار الأيديولوجي، فإن هذا الخيار أصبح يفرض نفسه كإطار يحدد للبحث العلمي سقف إمكاناته وسلم أولوياته، وهو ما يمكن تتبع تجلياته الملموسة من خلال رصد الترابطات الوثيقة التي أصبحت تنظم العلاقة بين التجمعات العلمية وبين أجهزة ومؤسسات السلطة السياسية[١].

(١) عماد هرملاني، العلم والأيديولوجيا – دراسة في إشكاليات منهج البحث العلمي، ١١٥

مكتبة الفكر الجديد

العلم والسياسة

من وجهة النظر الفلسفية والتاريخية فإن الأسئلة التي تدور حول علاقة العلم بالسياسة إنما تنجم عادةً على نحو متصل بتلك الأسئلة المتعلقة بالمباديء المناسبة للحكومات والتجمعات البشرية، ومدى شرعية أو جدوى السياسة والإمكانية السياسية للإذعان للمباديء العقلية. ومع ذلك، ومن وجهة النظر التحليلية الدقيقة، فإن تناول العلاقة القائمة بين العلم والسياسة لا تقتضي بالضرورة إثبات أو نفي أن السياسة هي أسلوب حوار أو طريقة سلوك في الشيءون العامة، كما أنه ليس من الضروري أن تهتم بالمباديء التي ينبغي أن تحكم الحياة العامة. وهكذا يجب النظر إلى السياسة بوصفها ظاهرة قائمة، والسؤال الأساسي الذي يجب طرحه هاهنا ليس هو: ما الذي ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين السياسة والعلم؟ بل بالأحري: كيف لهذين النمطين البشريين من الخطاب والسلوك أن يتفاعلا بحيث يؤثر كل

مكتبة الفكر الجديد

منهما في الآخر؟[١].

إن حاجة العلم إلى التمويل الحكومي تقتضي خضوعه بطريقة أو بأخرى لمتطلبات الخطط الحكومية التي لا تتطابق بالضرورة مع ما يمكن أن يمليه التزام الباحث بأصول مهنته وخصوصاً لجهة إيمانه المفترض بأن قيمة البحث تنبع من داخل البحث ذاته وليس من المنفعة التي يمكن أن تنجم عنه[٢].

إن الوضع الذي يواجهنا هنا يتعدي حدود السؤال عما إذا كان رجل العلم مضطراً حقاً إلى الاستسلام لـ"كابوس" الالتزام بخدمة أهداف السلطة السياسية وخططها، وعما إذا كان في مقدور "الضغوط الثقافية والمعنوية" التي تستخدمها السلطة أن تنجح في "إذلال" رجل العلم و"تحويله إلى آلة عمياء" تنفذ الأوامر التي تصدر إليها دون مناقشة أو تردد، فالواقع أن استغلال السلطة السياسية لنتائج البحث العلمي لم يكن يفترض في جميع الحالات حدوث ما يولد الانطباع بأن رجل العلم مرغم تماماً على الخضوع إلى ما تمليه لوائح التعليمات الحكومية الصريحة، بل إن ممارسة العلم البحت لم تتعرض، كما

(1) Ezrahi, Yaron , The Authority of Science in Politics, in: "Science and Values- Patterns of Tradition and Change", Edited by Arnold Thackray and E. mendelsohn, Humanities Press, New York, 1974, p. 215.

(٢) عماد هرملاني، العلم والأيديولوجيا – دراسة في إشكاليات منهج البحث العلمي، ص ١١٧.

مكتبة الفكر الجديد

يلاحظ أحد المتخصصين، إلى تغيرات كبيرة من جراء كونها تتم ضمن مؤسسات تابعة للدولة وتتغذى بأموالها، حيث يمكن الإقرار بأن "المبادهة وأشكال البحث لا تتوقف على أي شكل من التعليمات الخارجة عن حب اطلاع ومصالح هؤلاء الذين نذروا أنفسهم للبحث أو عن مصالحهم"، لكن هذا الواقع نفسه لا ينفي أن "الاختبارات التي هي موضوع هذا النوع من الأبحاث، تعتمد على مجموعة من المؤسسات، والآليات، والأساليب، والقرارات التي لا تتحكم بها هذه الممارسة وحدها" ومن هنا يمكن القول بأن الإشراف الحكومي على مؤسسات البحث العلمي يمكن أن يكون إشرافاً "ليبرالياً" يتسم بقدر كبير من "المرونة واللامركزية" لكن أنشطة هذه المؤسسات سوف تبقى متوقفة في نهاية المطاف "على نظام القرارات السياسية الذي يؤمن لها الموارد. وهكذا فإن انخراط الباحث العلمي في مؤسسات البحث التابعة لإشراف الدولة والقائمة على دعمها سوف يعني خضوعه للأهداف التي تجعلها السلطة السياسية هادياً للعمل العلمي، وفي بعض الأحيان موجهاً لخطواته التنفيذية، وذلك حتى عندما يعتقد ذلك الباحث بأنه قد نذر نفسه من أجل خدمة الحقيقة وحدها[1].

(١) المرجع السابق، ص ١١٧ - ٨.

مكتبة الفكر الجديد

ولو تأملنا العالَم المحيط بنا لوجدنا أن الظروف الواقعية ذاتها، في هذا العالَم، تحتم وجود تداخل وثيق بين العلم والسياسة، فلم يعد في استطاعة العالِم أن يمضى في حياته العلمية مستقلاً، ويبحث المشاكل التي تهمه أو التي يريد كشفها، بل إنه أصبح، كما قلنا من قبل، مرتبطاً على الدوام بمؤسسات أكبر منه، هي التي تقدم إليه الإمكانات، وتزوده بالأدوات المعقدة المكلفة التي أصبحت شرطاً أساسياً للبحث العلمي في العصر الحاضر. وينطبق هذا على مختلف أنظمة الحكم القائمة في العالَم: ففي البلاد الاشتراكية يرتبط البحث العلمي بخطة الدولة، وهي خطة سياسية في المحل الأول، تحدد للعلماء مجالات البحث المطلوبة، ومقدار التمويل والتسهيلات التي ستقدمها الدولة إليها. وفي البلاد الرأسمالية يشتغل عدد كبير من العلماء في مؤسسات ذات أهداف تجارية مباشرة. وحتى العاملون في الجامعات، يقومون بكثير من مشروعاتهم لصالح هذه المؤسسات بل إن المرتبات التي يحصل عليها علماء الجامعات ومعاهد البحث، يأتى جزء كبير منها من مساهمات المؤسسات الصناعية والتجارية في ميزانيات الجامعات والمعاهد. ومن الطبيعي أن تفرض هذه المؤسسات اهتماماتها الخاصة على مجالات البحث، فضلاً عن أنها لا تود أن يخرج المشتغلون بالعلم عن إطار السياسة العامة التي تحافظ على مصالح هذه المؤسسات. وإذا كان يبدو أن تحكّم

مكتبة الفكر الجديد

"الخطة" التي تضعها الدولة، في النظام الاشتراكي، هو الأقوى، فإن حقيقة الأمر هي أن المؤسسات ذات الأغراض التجارية تحل محل الدولة في رسم السياسة المطلوبة للبحث العلمي في المجتمعات الرأسمالية، لأنها تمول نسبة كبيرة من مشروعات البحث العلمي عن طريق التبرع بأموال طائلة تخصم من الضرائب المستحقة عليها، وبذلك تضمن سيطرتها دون أن تخسر شيئاً، وتضمن في الوقت نفسه استمرار المباديء العامة التي تتماشى مع مصالحها[١].

ومن الملاحظ أن استغلال السياسة واستخدامها لسلطة العلماء تأخذ أشكالاً متنوعة إذ يقوم بعض السياسيين أحياناً باستخدام العلماء كواجهة للتستر خلفهم من أجل اتخاذ قرارات غير مسئولة وخاطئة. إذ يمكن لرجل السياسة في هذه الحالة الادعاء بأن ليس في مقدوره أن يصنع شيئاً أمام قوة البداهة والضرورة العلميتين[٢]، كما يمكن أيضاً الاستعانة بسلطة العلماء من قبل رجال السياسة لتوظيف ذلك من أجل التلاعب بتوقيت اختيار أو تطبيق قرار سياسي معين[٣]. وما حدث في غزو العراق من أمريكا تحت زعم أنه يمتلك أسلحة

(١) د. فؤاد زكريا، التفكير العلمي، ص ٢٠٩ - ١٠.

(2) Ezrahi, Yaron , The Authority of Science in Politics, in: "Science and Values- Patterns of Tradition and Change", Edited by Arnold Thackray and E. mendelsohn, Humanities Press, New York, 1974, p. 227.

(3) Ibid, p. 227.

مكتبة الفكر الجديد

نووية استناداً إلى تقارير استخباراتية مستندة إلى معلومات علمية، لهو دليل على استغلال السياسة للعلم والعلماء.

كما أن صراع المصالح أو تعارضها قد يؤثر سلباً على حياد العلماء، لكن علينا أولاً أن نوضح ما المقصود بصراع المصالح: يحدث صراع المصالح عندما تتصارع المصالح الشخصية أو المالية للمرء مع التزاماته تجاه المهنة أو المؤسسة. هذا الصراع يقوض أو يضعف قدرات الناس على اتخاذ قرارات وأحكام موضوعية موثوق بها مثلاً، الأب الذي يُطلب منه أن يحكم مباراة كرة سلة تلعب فيها ابنته، تتصارع لديه المصالح: علاقته بابنته، وهي مصلحة شخصية تتصارع مع واجبه في تحكيم المباراة بنزاهة، هنا قد يتوقع المرء أن الأب سيعمل على احتساب نقاط لمصلحة فريق ابنته، لكن يمكن أيضاً أن يحاول تعويض هذا التحيز المعيب فيعمل على احتساب بعض النقاط ضد فريق ابنته. ولما كان حكمه متحيزاً فإن النقاط التي احتسبها غير موثوق بها وغير صادقة[1].

وعندما يحدث صراع المصالح في العلم، فمن الممكن أن ينال من موضوعية الأحكام والقرارات العلمية، مثل تحليل وتأويل

(١) رزنيك (ديفيد ب.)، أخلاقيات العلم، ترجمة د. عبد النور عبد المنعم، مراجعة د. يمنى طريف الخولي، عالم المعرفة، العدد ٣١٦، الكويت، يونيو ٢٠٠٥، ص ١٢٩.

مكتبة الفكر الجديد

المعطيات، وتقويم الأبحاث العلمية ومشاريع الأبحاث، بالإضافة إلى قرارات التوظيف والترقية[١].

وهناك نوع شديد الشيوع من صراع المصالح في العلم يحدث عندما ينتظر الباحثون منفعة مالية من جراء نتائج البحث. هذه المنافع يمكن أن تتمثل في زيادة المرتب، وحقوق النشر أو استغلال براءة الاختراع، وتمويل بحث إضافي، وحصة في الأرباح واعتمادات مالية أخرى وهكذا. كل هذه المنافع المالية يمكن أن تخلق صراعاً للمصالح حقيقياً أو ظاهرياً، من حيث إنها تعرض للشبهة قدرات العالِم في تصميم تجارب، وإجراء الاختبارات، وتأويل المعطيات بصورة موضوعية. بالنسبة إلى الحالة الراهنة، وظف العالِم ميشيل ماكنن M. Macknin من كليفلاند أمواله في شركة تصنع قطع حلوى طيبة للحلق على شكل المعين السداسي. اشترى هذا العالِم أسهماً في هذه الشركة فور أن توصل إلى معطيات وبيانات تفيد بأن هذا النوع من الحلوى الطيبة فعّال في حالات البرد. ارتفعت قيمة سهم الشركة بعد أن نشر ماكنن نتائج البحث فكان أن ربح ١٤٥ ألف دولار في هذه الحالة، يبدو أن ماكنن وقع في صراع مصالح معتدل، مادام قد توصل إلى هذا الاستثمار المالي نظير حصوله على نتائج

(١) المرجع السابق، ص ١٣٣.

مكتبة الفكر الجديد

إيجابية، ولعله بهذا كان يخطط لشراء أسهم في الشركة. أما إذا كان قد اشترى الأسهم قبل إجراء البحث، فإنه يقع في صراع المصالح الحاد. والاستجابة المناسبة لهذا الصراع هي الكشف عنه وهذا ما فعله، وأن يراقب الصراع، وهذا ما ينبغي عليه وعلى جميع الأطراف أن يحاولوا إتيانه[١].

وإذا أردنا أن نطبق التحليل الأخير لصراع المصالح بالنسبة إلى العلم فإنه يتبع ذلك أن يكون لدي العلماء التزام بالكشف عن صراع المصالح، بما فيها الصراعات الظاهرية. وعلى الرغم من أن صراع المصالح قد لا يقوض البحث أو يفسد نتائجه، يجب على العلماء الآخرين (وعلى العامة) أن يعرفوا جيداً أن الصراع موجود. فإذا كانت نتائج العالِم "ماكنن" صالحة، فربما أراد علماء آخرون تكرار تجاربه أو عرض عمله للفحص النقدي الأبعد، لأن لديهم من الأسباب ما يجعلهم يشكون في مصداقية أحكامه. أما بالنسبة إلى العلماء الذين يحصلون على دعم مالى من الأعمال الحرة، فيجب عليهم أيضاً أن يكشفوا عن مصدر هذا الدعم المالي ماداموا يحصلون على منفعة مالية من خلال جنيهم لنتائج مفيدة. والآن نلاحظ أن دوريات وصحفاً كثيرة تطلب من العلماء أن يكشفوا عن مصادر التمويل من

(١) المرجع السابق، ص ١٣٣ - ٤.

مكتبة الفكر الجديد

أجل معالجة صراعات المصالح[١].

من المنظور المثالي، يجب على العلماء، مثلما يجب على أصحاب المهن الأخرى، أن يتجنبوا كل صراعات المصلحة، ويجب عليهم أن يراقبوا الصراعات الظاهرية. ومع ذلك، يمكن لحقائق عملية أن تمنع العلماء من الإنصات إلى هذه المعايير المثالية. البحث غالباً ما يعود بمكافآت، كما أنه غالباً ما يكون دعمه المالي عن طريق الأعمال الحرة. لذا عندما نضع في الاعتبار هذه الحقائق المالية والاقتصادية، فعلينا أن نتوقع أن صراع المصالح سوف ينشأ في العلم وربما لا يمكن تجنبه في حالات كثيرة، مثلاً عندما يعمل العلماء لحساب مصنع، أو عندما يحاولون تطوير اختراعات لها براءات اختراع. فإذا تجنب العلماء كل صراعات المصالح، فإن عدداً ضخماً من الأبحاث لن يمكن إجراؤها أصلاً، كما أن كثيرين لن يجدوا عملاً كعلماء ويكون عليهم البحث عن وظيفة في أي مكان. لكن يبدو أن أياً من هذه النتائج لن تكون في مصلحة المجتمع أو الأعمال الحرة أو مهنة العلم. يجب على العلماء أن يكشفوا عن كل صراعات المصالح (الحقيقية أو الظاهرية)، كما يجب عليهم أن يتجنبوا صراعات المصالح الحادة. لكن يمكن التسامح إزاء دخول

(١) المرجع السابق، ص ١٣٤.

مكتبة الفكر الجديد

صراعات المصالح المعتدلة عالم العلم، كما يمكن مراقبة صراعات المصالح الظاهرية جيداً. يمكن للعلم أن يسمح ببعض صراعات المصلحة، مادام المجتمع العلمي يستطيع أن يختبر ويفحص عمل العلماء الذين يقعون بين فكي هذه الصراعات. إن تحكيم النظراء يساعدنا في ضمان أن الانحيازات أو الأخطاء الناتجة عن صراع المصالح من الممكن أن تصحَّح[1].

يمكن استخدام سلطة العلميين أيضاً كاداة من أدوات التحكم الاداري لكثير من البرامج الحكومية، إذ معظم ميادين الخدمة العامة لها توجهات قانونية ومالية فضلاً عن التوجهات العلمية، فالخبراء العلميون يستطيعون أداء وظائف الخبراء القانونيين أو الاقتصاديين كطرق لتقنين الشيءون الادراية أو ضبط السياسات والتي تنغمس في وظائف متشعبة من اللوائح السياسية والبيروقراطية. إن استخدام السياسة للعلم والتي هي متقاربة للحالة المدروسة فيما بعد في هذا البحث تتقارب مع التعريف العلمي للحقائق أو التأكيدات على السلوك الإجتماعي والسياسي. إن سلطة العلم تستطيع في بعض المحررات الإجتماعية ان تقدم بعض العقوبات والتي يمكن أن تتحول إلى توجهات عن الحقيقة في شكل اختيارات مجمعة وسلوك

(١) المرجع السابق، ص ١٣٤ - ٥.

مكتبة الفكر الجديد

اجتماعي. يمكن أن يحدث هذا فيما ولو كانت سلطة العلم تظهر كمؤسسة من خلال الرأي العام[١].

ولكن، بالرغم من أن الاعتبارات السياسية تتحكم في العلم الحالي إلى هذا الحد، فإن كثيراً من المجتمعات تطالب العلماء بألا يتدخلوا في السياسة، وتضع كثيراً من المؤسسات والجمعيات العلمية هذا الشرط على كل عالِم مشتغل بها. فالمطلوب من العلم أن يكون طاقة للمعرفة، تعمل جهات أخرى على توجيهها وتحديد الأهداف الإجتماعية التي تستخدمها. وإذا شاء العالِم أن يعبر عن آرائه السياسية والإجتماعية. فعليه أن يفعل ذلك بوصفه مواطناً عادياً، لا بوصفه عالِماً. وهذا هو الشرط الأساسي "لموضوعية" العالِم كما تفهمها مجتمعات كثيرة. وهذا أمر مؤسف. لأن معناه هو أننا نعمل منذ البداية على استبعاد المنهج العلمي من بحث الموضوعات التي تمس حياة الإنسان. أعنى الموضوعات السياسية والإجتماعية والأخلاقية، مع أن هذه الموضوعات قد تكون في أمس الحاجة إلى أن تُبحث بالأساليب الفكرية السليمة. فحين نعالج هذه الموضوعات متوخين أن نبحث عن الأدلة النزيهة في كل حالة، ونبتعد عن أساليب الديماجوجية[٢] والتهويش، وحين نفكر في سياستنا وشئون مجتمعنا

(1) Ezrahi, Yaron , The Authority of Science in Politics, p. 228.

(٢) الديماجوجية Demagogy ديماجوجي مصطلح من أصل يوناني معناه الحرفي:

تفكيراً يخلو من الانفعالية ولا يعترف إلا بالحجة المنطقية، وحين نختبر النظريات التي تُنْظَم وفقاً لها حياتنا الإجتماعية عن طريق التطبيق، كما يفعل العالِم في تجاربه المعملية، وحين نبحث عن العلاقات السببية الحقيقية بين الظواهر الإجتماعية، حين نفعل ذلك كله، فنحن بغير شك نسدي خدمة جليلة إلى قضايا الإنسان المصيرية في مجتمعاتنا. وفي هذه الحالة يكون العلم قد أثبت وجوده في

"قائد الشعب". ولقد استخدم أفلاطون مصطلح "ديماجوجي" بهذا المعنى فأطلقه على قادة النظام الديمقراطي بعد انتصار الديمقراطية في أثينا. وتُستخدم الديماجوجية الآن بمعنى القدرة على كسب تعضيد الناس ونصرتهم عن طريق استثارة عواطفهم واللعب بأحاسيسهم ومشاعرهم وليس عن طريق الحوار العقلاني معهم. والديماجوجي هو الشخص القادر على الوصول إلى السلطة مستخدماً مهاراته الخطابية، حيث يستطيع أن يتحكم في انفعالات المستمعين إليه وأن يدفعهم إلى التحرك في الاتجاه الذي يريده هو بالرغم من وجود اعتبارات كثيرة موضوعية ترجح عدم التحرك في هذا الاتجاه. ويرى العديد من المفكرين أن الديماجوجي لابد أن يكون متصفاً أصلاً بصفات كاريزماتية وبصفات قيادية، وأن يكون شديد الثقة بنفسه وقادراً على أن ينقل ذلك الشعور بالثقة للآخرين بحيث يظهر لهم وكأنه مقتنع تماماً بصدق ما يقوله لهم رغم علمه التام بزيف ما يدعيه. ودائماً ما يعزف الديماجوجي على وتر قدرته على الرؤية المستقبلية لأخطار تحدق بالشعب ولا يستطيع أن يراها، فيدعو الناس للتكتل وراءه ليحارب بهم قوى الطغيان التي يعلم دونهم أنها تحاول قهرهم والسيطرة عليهم. والديماجوجي يكون دائماً مهتماً بالوصول إلى السلطة أكثر من اهتمامه بالصالح العام، ومن ثمَّ يكون مستعداً دوماً لتبني سياسات ذات عواقب وخيمة بالنسبة للشعب إذا ما كانت هذه السياسات ستحقق هدفه الشخصي في الوصول إلى السلطة أو البقاء فيها.
[انظر: موسوعة العلوم السياسية، الجزء الأول، تحرير محمد محمود ربيع وإسماعيل صبري مقلد، جامعة الكويت، ١٩٩٤، ص ٢٨٧ _ ٨٨.]

مكتبة الفكر الجديد

المجال السياسى والإجتماعي، مما يبدد تلقائياً تهريج المشعوذين والآفاقين الذين يتحكمون في هذا المجال الحاسم بأساليب لا تمت إلى العلم أو التفكير السليم بأية صلة. ولكن المهم في هذه الحالة هو أن يكون العالِم نزيهاً بحق، وأن تعطى له فرصة التعبير عن نفسه دون ضغط أو تأثير، وهو على أية حال شرط يصعب إلى حد بعيد تحقيقه في معظم المجتمعات المعاصرة[١].

ولعل المجال الأساسي الذي يُـظْهِر حجم المسؤوليات الإجتماعية الملقاة على عاتق الباحث العلمي في الوقت الراهن هو ميدان الأبحاث العلمية الموظفة لتطوير أنظمة التسليح العسكري، ولاسيما ما يتعلق بتطوير الأسلحة النووية التي باتت تشكل مصدر خطر يهدد وجود المجتمع البشرى. فأمام هذا الخطر المحدق وجدت المجتمعات العلمية نفسها عاجزة عن البقاء في منأي من التفاعلات الإجتماعية التي أثارتها قضية استخدام العلم في تهيئة وسائل تدمير المجتمع الإنساني حيث أصبح من واجب رجل العلم، أو من حقه أن يتساءل عما "إذا كان يقوم بالبحث أم بالصناعة، بعلم الفيزياء أم بعلم المعادن، بالحرب أم بالسلام. وقد لا يكون أمراً عديم الدلالة في هذا المقام أن أول تحرك جاد قام به بعض العاملين في

(١) رزنيك (ديفيد ب.)، أخلاقيات العلم، ترجمة د. عبد النور عبد المنعم، مراجعة د. يمنى طريف الخولي، ص ٣١٠-١١.

مكتبة الفكر الجديد

مضمار البحث العلمي بهدف التحذير من أخطار الأسلحة الذرية قد جاء في أعقاب الحرب العالمية الثانية وكنتيجة مباشرة لما حدث في هيروشيما وناجازاكي، حيث قام عدد من العلماء البارزين بتشكيل رابطة دولية لهذا الغرض عُرِفَت باسم "الاتحاد العالمي للمشتغلين بالعلوم". ثم تتابع بعد ذلك عقد مؤتمرات عديدة وصدرت بيانات كثيرة أعربت في مجموعها عن قلق العلم إزاء ظاهرة ربط الأبحاث العلمية بمقتضيات التطور العسكرى وسياق التسلح. وكان أبرز هذه البيانات البيان الذي أصدره "برتراند رسل" عام ١٩٥٥ ووقع عليه عدد من مشاهير العلماء وبينهم أينشتين الذي وقع على هذا البيان قبل يومين من وفاته. وقد تكون الملاحظة التي تفرض نفسها في هذا المقام هي أن السلطات السياسية والأجهزة التابعة لها لم تعط كثير اهتمام للنداءات التي أعرب فيها رجال العلم عن قلقهم إزاء الطريقة التي تستخدم بها نتائج أبحاثهم وفق ما تقتضيه برامج السلطة السياسية وطموحاتها. بل إن أصحاب مثل هذه المواقف والنداءات كثيراً ما تعرضوا لضغوط صريحة ومباشرة من جانب السلطات السياسية بهدف إعادتهم إلى الجادة التي تلائم توجهات السلطة وأهدافها[1]. إن سعى بعض الحكومات للتدخل في عمل العلماء،

(١) عماد هرملاني، العلم والأيديولوجيا – دراسة في إشكاليات منهج البحث العلمي، ص ١١٨ – ٢١.

مكتبة الفكر الجديد

ومحاولة وضع العقبات والعراقيل للحد من حرياتهم في البحث والتأمل والاستكشاف سوف يؤدي في نهاية المطاف إلى القضاء على مصدر من أهم مصادر قوة أية حكومة من الحكومات[١].

إلا أن السؤال الذي ينبغي طرحه، رغم ذلك، إنما يتعلق بما إذا كان عجز رجل العلم عن الاضطلاع بمسؤولياته إزاء حالة "الاغتراب" التي آل إليها العلم الحديث نتيجة سوء استخدامه من جانب السلطات المتحكمة، يبيح للباحث العلمي أن "يخادع نفسه وهو يتذرع بحياد المادة العلمية كي يتجاهل الوظيفة الإجتماعية التي يمارسها". وقد يكون مما لا شك فيه أن طرح هذا السؤال يخرج برجل العلم من صفاء عالمه العلمي الخاص لينتقل به إلى ضبابية الخطاب الأيديولوجي. لكن المسألة التي لم يعد ثمَّة مناص من مواجهتها هنا هي أن ظروف المجتمع الحديث قد هدمت ذلك الحاجز الذي كان يمكن لرجل العلم أن يحتج بوجوده بين ميداني العلم والأيديولوجيا، وذلك عندما جعلت من البحث العلمي استثماراً اجتماعياً يستمد مبرراته من كونه "نشاطاً في سبيل الإنتاج" أكثر بكثير من كونه "مغامرة للفكر الحر". فإذا كان من الصحيح أن السلطات السياسية تتحمل المسؤولية المباشرة عن طريقة استخدام نتائج البحث العلمي، فإن ذلك لا يلغي

(1) Hallsham, Viscount, Science and Politics, Faber and Faber Limited, London, 1963, p. 14.

مكتبة الفكر الجديد

مسوغات الدعوة التي تطالب الباحث العلمي بأن "يفكر على نحو جاد ومنهجي ومسؤول بشأن النتائج طويلة المدى لعمله، ولمختلف أوجه استخدامه أو سوء استخدامه في المستقبل[١].

وعادةً ما تلعب السرية دوراً مهماً في تطوير الملكية الفكرية في الصناعة والتحكم فيها. فإذا بحثت شركة عن براءة لاختراع ما، فإن هذا الأمر يتطلب السرية للحفاظ على البحث قبل أن يصبح إعمال براءة الاختراع سارياً. على رغم أن براءات الاختراع تشجع على الانفتاحية في المعلومات، فإن فترة السرية غالباً ما تظل سائدة حتى تحصل الشركة على البراءة. معظم الشركات تحافظ بالمثل على السرية التجارية تماماً، من أجل الإبقاء على الميزة التنافسية. مثلاً لم تحصل تركيبة الكوكاكولا على براءة اختراع، إنها سر تجاري. وعلى الرغم من أن العلماء الذين يعملون في ميدان الصناعة غالباً ما ينشرون نتائجهم، فإن الشركات تراقب نتائج أبحاثهم وتتكتم عليها حفاظاً على مصالحها. وبالإبقاء على هذه السرية، تحقق الشركات أقصى حد ممكن من الأرباح، لكنها غالباً ما تعوق تطور وتقدم المعرفة[٢].

(١) عماد هرملاني، العلم والأيديولوجيا – دراسة في إشكاليات منهج البحث العلمي، ص ١١٨ – ٢١.

(٢) رزنيك (ديفيد ب.)، أخلاقيات العلم، ترجمة د. عبد النور عبد المنعم، مراجعة د. يمنى طريف الخولي، ص – 226 7.

مكتبة الفكر الجديد

السرية قد تتصادم مع الأخلاقيات العلمية أو مع القيم الخلقية والسياسية. الشركة أحياناً تؤذي الناس بكتمانها للأسرار؛ ثمَّة البحث المتعلق بإدمان النيكوتين وقد تحملت أعباءه شركات التبغ وهو يلقي الضوء الكثيف على هذا. في جلسة الاستماع بالكونجرس الخاصة بشركات التبغ، ناقش كل من فيكتور دينوبل V. Denobel وبول ميل P. Mele بحثاً أجرياه على إدمان النيكوتين في بواكير الثمانينيات، وذلك في مختبر شركة "فيليب موريس" Ph. Morris وقد اكتشف هذان الباحثان مادة تزيد من إدمان النيكوتين عندما تضاف إلى السجائر. وقد شهدا أيضاً زملاء لهما قد اكتشفوا شكلاً اصطناعياً للنيكوتين وأن الآثار السامة للنيكوتين الصناعي أقل من الآثار السامة للنيكوتين الطبيعي. وكان الهدف من بحثهما هو تطوير مادة النيكوتين،بحيث تجعل أقل إيذاء وضرراً؛ وقد كان هذا جانباً من برنامج بحث لدراسة كل ما يمكن معرفته عن النيكوتين وآثاره في الجسم. والجدير ذكره هنا أن عملهما ظل طيّ السرية، بحيث لم يكن مسموحاً لهما بمناقشته مع الرفاق والزملاء، كما أن الحيوانات التي استخدمت في البحث قد أُتي بها إلى المختبر بسرية بالغة. وأعد دينوبل وميل حيثيات كشوفهما في بحث أرسلاه للتحكيم كي ينشر في دورية علمية عن الأدوية المستخدمة في العلاج النفسي هي «Psychopharmacology» التي وافقت على نشره. وعندما

مكتبة الفكر الجديد

علم فيليب موريس بذلك، أجبر دينوبل وميل على سحب البحث، وسرعان ما أغلق فيليب موريس مختبره كما أن الباحثين دينوبل وميل غادرا هذه الشركة، ولم يسمح لهما بمناقشة هذا البحث إلا بعد أن رتب عضو الكونجرس هنري واكسمان H. Waxman الترتيبات كافة لهذين الباحثين للتحرر من اتفاق أبرماه مع فيليب موريس بعدم مناقشة بحثهما طوال العمر من دون إذن الشركة. وعلى الرغم من أنه في أوائل الثمانينيات كان معروفاً على نطاق واسع أن النيكوتين يسبب الإدمان، فإن خصائصه الإدمانية كانت لا تزال غير مفهومة جيداً. ولو أن بحث دينوبل وميل كان قد أتيح لعلماء النفس وعلماء الصيدلة وباحثين آخرين، لكان من المحتمل أن يطوروا تقنيات أفضل لمواجهة إدمان النيكوتين. وإذا كانت الهيئة الفيدرالية للتخدير وهيئة الجراحة العامة قد علمتا بحيثيات هذا البحث فإنه من المحتمل أن هذه الهيئات ستصدر تحذيرات قوية عن أخطار استخدام التبغ، وتحاول تغيير بعض سياستها التربوية والتنظيمية. ولو كان بحث دينوبل وميل قد نشر على الناس في أوائل الثمانينيات، لكان من المحتمل أن يكون عدد من وقعوا فريسة إدمان النيكوتين أقل أو عدد الذين شفوا من إدمانه أكبر. والواقع أن الضرر الذي يسببه النيكوتين معروف جيداً: إنه يسبب الضرر للناس مباشرة بأن يزيد مخاطر مرض القلب، كما أنه يسبب - بشكل غير مباشر - ضرراً عن طريق إكراه الناس على تناول

مكتبة الفكر الجديد

منتجاته التي لها تاثير مباشر على سرطان الرئة والفم والحنجرة، وأيضاً يسبب تضخماً في الرئة. هكذا يمكن القول إنه بالحفاظ على الأسرار التجارية بالمظاهر الإدمانية للنيكوتين، تسبب فيليب موريس في إيذاء الناس وإنزال الضرر بهم. (بالطبع منتجات التبغ التي تروجها شركة فيليب موريس مؤذية وضارة جداً من أي زاوية كانت، لكن هذه الحقيقة لا تقلل من الضرر المضاعف عند الحفاظ على سرية أبحاث النيكوتين)[1].

وقد يكون من الواجب الاعتراف في هذا السياق بصعوبات الموقف الذي يحتمل أن يواجه الباحث العلمي حين يقبل بحمل أعباء مسؤوليته كاملة، وخصوصاً في الحالات التي تدفع بتنازع ولاءات الباحث إلى مداه المتطرف، وذلك حين يصبح الاختيار قائماً بين مسايرة الميل العلمي "الذي يتعذر تحقيقه دون دعم السلطة" وبين "تلويث هذا الميل بالدعم الذي يتلقاه" أو حين يكون ثمن الاختيار هو تهديد "عمالة الفرد" وخصوصاً تهديد "مستقبله المهني". إلا أن صعوبة هذا الاختيار لا تنفي وجوبه وما ينبغي أن يكون واضحاً في هذه الحالة هو أن قرار الباحث بالاستمرار في مواصلة أعماله أياً تكن نتائجها هو في نهاية التحليل قرار شخصي ينطوى حكماً على خيار

(١) المرجع السابق، ص ص 8-227.

مكتبة الفكر الجديد

أيديولوجي يجب أن لا يحجبه اللجوء إلى الادعاء التقليدي القائل بأن مهمة العلم تقتصر على تقديم المعارف وأن استعمالاتها ليست من مسؤولياته. فالاختيار في هذا المجال إنما يستجيب لطريقة معينة في ترتيب أولويات الالتزام والولاء لقيم تنتمي جميعاً إلى حقل الأيديولوجيا الذي يتسع - كما لاحظ جيراربوي - لمواقف تعلي من شأن الأيديولوجيا عن طريق الاعلاء من شأن العلم بعد أن أصبح الإيمان المفرط بقيمته المطلقة جزءاً من أيديولوجية العصر[١].

ويختلف وضع المستشار العلمي عن المستشار العسكري في أية حكومة من حيث إنه لا يكون مسؤولاً عمّا يترتب على النصائح التي يقدمها إلى الحكومة من نتائج، وهذا أمر مفيد وضار في آنٍ واحد، لأنه يؤدي إلى التخفيف من المسؤولية وعدم التبصر بالعواقب، بجانب التمتع بالموضوعية واستقلال الرأي، وهي أمور ما كان من الممكن أن تتحقق لو أن المستشار العلمي كان مسؤولاً مسؤولية مباشرة عمّا يقدمه من نصائح[٢].

---

(١) عماد هرملاني، العلم والأيديولوجيا - دراسة في إشكاليات منهج البحث العلمي، ص 121.

(2) Wood, Robert C. , Scientists and Politics: The Rise of an Apolitical Elite, in: Scientists and National Policy-Making, Edited by Robert Gilpin and Christopher Wright, Columbia University Press, New York, 1964, p. 87.

مكتبة الفكر الجديد

العلم والأيديولوجيا

إن الأيديولوجية موجودة بقدر أو بآخر في كافة العلوم بما فيها العلوم الطبيعية، فكل العلوم تعالج مصالح الناس بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. كل ما هنالك أنها مباشرة وتكون صارخة في ساحات العلوم الإجتماعية"[١]. لقد أصبح العلم ذا طابع اجتماعي، ونعني بذلك الدلالة الإجتماعية للعلم ولمسؤولية العلماء، كما نعني به حجم منتجات العمل ونفقاته من الموارد المادية والبشرية مما يضاعف من تبعية العلم للمجتمع[٢].

الأيديولوجية مصطلح حديث نسبياً ابتكره في مايو ١٧٩٦ لأول مرة المفكر الفرنسي "ديتوت دي تراسي"[٣] Destutt de Tracy

(١) د. فؤاد مرسي، المنهج بين الوحدة والتعدد، دراسة تحليلية، ص ٧٤

(٢) المرجع السابق، ص ٨٠.

(٣) فيلسوف وعالِم نفس فرنسي، كان من أتباع الفيلسوف "كوندياك" وأطلق على هؤلاء الأتباع اسم "الأيديولوجيين" Les idéologues (ويُقال إن نابليون هو الذي أطلق عليهم هذا الاسم سخريةً منهم لأنهم كانوا من معارضيه السياسيين). وقد

مكتبة الفكر الجديد

(١٧٥٤-١٨٣٦)؛ وذلك في محاولة للدلالة على ما اسماه علم الأفكار Science of ideas تمييزاً له عن الميتافيزيقا. ثم لم يلبث المصطلح أن تغير معناه قليلاً، بحيث يطلق على مجموعة الأفكار والمعتقدات، التي يبثها مجتمع ما، في نفوس أفراده، لترسم لهم أفضل الطرق، التي يسلكونها في حياتهم العملية والنظرية، ليحققوا للمجتمع أهدافه؛ ومعنى ذلك أن أولى الأمر في مجتمع ما يحددون لأعضاء ذلك المجتمع، الإطار الفكري، وخصوصاً فيما يتعلق بالأمور السياسية، وهو الإطار الذي لا يجوز لأحد أن يخرج على حدوده، ثم تكون له الحرية كلها في أن يفكر كيف شاء، داخل حدود ذلك الإطار[١].

وجاء ماركس وإنجلز، فاستخدما كلمة "أيديولوجيا" بمعنى ينحرف انحرافاً يسيراً عن المعنى السابق؛ إذ هو عندهما لا يعني مجموعة فكرية يضعها مجتمع لأعضائه، بل يعني فقط مجموعة الأفكار القائمة على أوهام، لا على حقائق الواقع. وقد كانت المجتمعات -

---

ساهمت هذه المدرسة بنصيب هام في علم النفس، ومن تطوراتها التالية نظرية " Lange في الانفعال. وكان أهم مؤلفاته هو "عناصر الأيديولوجية" Elé-ments d'idéologie (في أربعة مجلدات)

[انظر: د. فؤاد زكريا، هامش ص ٢١ من كتاب أيكن (هنري د.)، عصر الأيديولوجية، ترجمة: د. فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٢]

(١) د. زكي نجيب محمود، الأيديولوجيا ومكانها من الحياة الثقافية، مجلة فصول، المجلد الخامس، العدد الرابع، ١٩٨٥، ص ٢٧

مكتبة الفكر الجديد

في رأيهما - تتعمد أن تبث في نفوس الناس، مثل هذه الأفكار التي لا تقام على واقع، حتى تتحدد لهم بهذا رؤية خاصة بهم لما يجري في العالَم الخارجي. وكان الذي يقابل كلمة "أيديولوجيا" - مأخوذة بهذا المعنى - عند ماركس وإنجلز، هو النظر العلمي للواقع. ومن أقوال ماركس في هذا الصدد، أن الأيديولوجيا - بهذا المعنى - هي حالة الوعي، التي تكون عند الناس، بالنسبة إلى الظروف التي يعيشون فيها، بحيث تظهر لهم تلك الظروف مقلوبة رأساً على عقب، كما يحدث لصور الأشياء في آلات التصوير؛ وواضح من ذلك، أن ماركس ينفي أن تكون نظريته أيديولوجيا[١].

ثم اتخذ المصطلح معنى واسعاً بعد ذلك، بحيث أصبح معناه: الفكرة التي تستبد بصاحبها، ويحاول أن يفسر بها الوجود كله، والنظم الإجتماعية كلها؛ وبناء على ذلك، يكون الوجود كله، كأنما هو كتلة واحدة متماسكة، مشتملة على كل أجزائها، بحيث لا تستطيع أن تمس جزءاً يتغير، إلا ويتغير النظام كله؛ وأصحاب هذه النزعة يتخذون حيال أفكارهم المستبدة بعقولهم، وقفة مغلقة، فإما أن تقبلها كلها، وتقبل النظام الذي يترتب عليها كله، وإما أن ترفضها كلها وترفض أيضاً النظام الذي يترتب عليها، أي أنهم لا يسمحون بالنقد

(١) المرجع السابق، الموضع نفسه.

مكتبة الفكر الجديد

الجزئي، الذي يحاول أن يصلح جزءاً دون جزء آخر، أو فكرة من البناء الشامل دون فكرة[١].

إن لفظ الأيديولوجيا يُطْلَق بمعنيين: أحدهما مذموم والآخر مقبول. فالمعنى المذموم تكون الأيديولوجية فيه هي آراء الخصم الظاهرية، التي تخفي الطبيعة الحقيقية لموقفه، والتي ليس من صالح ذلك الخصم الكشف عنها. وبالمعنى المقبول يقال أن أيديولوجية عصر أو طبقة ما هي إلا خصائص الذهن وتركيبه في ذلك العصر أو تلك الطبقة. ويظهر هذان المعنيان معاً في الفلسفة الماركسية، التي يرجع إليها إذاعة شهرة لفظ الأيديولوجيا: فترى ماركس يتحدث عن الأيديولوجيا على أنها تمثل مواقف الناس كما لو كانت في صورة مقلوبة، ويضع الأيديولوجيا مقابل التفكير العلمي الأصيل، وينظر إلى مذهبه ذاته على أنه تجاوز للأيديولوجيا وكشف لخداعها، وبهذا المعنى يتحدث عن "الأيديولوجية الألمانية" بوصفها مذهباً فكرياً لفلاسفة خضعوا لمؤثرات لم يشعروا بها، على حين أن فلسفته هو لم تكن في نظره "أيديولوجيا"، بمعنى أنه لابد أن يعكس ظروف طبقة معينة. وهكذا اختفي التقابل القديم بين الأيديولوجيا وبين التفكير العلمي، وأصبحنا نجد مفكراً ماركسياً مثل جورج بوليتزر[٢]

(١) المرجع السابق، الموضع نفسه

(٢) بوليتزر، جورج Politzer, Georges فيلسوف فرنسي. وُلِدَ عام ١٩٠٣ في

يصف الأيديولوجيا بأنها "مجموعة من الأفكار تُكِّون كلاً أو نظرية أو مذهباً أو حالة ذهنية فقط في بعض الأحيان"، ويعترف بأن المذهب الماركسى ذاته له أيديولوجيته التي تعكس تأثير العوامل الاقتصادية والإجتماعية المؤثرة في الطبقة العاملة [١].

ويرفض الدكتور فؤاد زكريا[٢] ترجمة اللفظ الأجنبي ideology

ناجيفاراد (النمسا - المجر)، وأعدم في مارس عام ١٩٤٢ رمياً بالرصاص على أيدي النازيين مع عدد من رفاقه من المثقفين والمناضلين العماليين. وقد وضعت ميتته المأساوية حداً لتفكير كان خليقاً بأن يفضي إلى واحد من أكثر أشكال الفكر الماركسي أصالة في هذا القرن. استهل بوليتزر نشاطه الفكري بترجمة كتاب الحرية الإنسانية لشلينج، ثم اتجه نحو الماركسية ووجَّه نقداً حاداً وعنيفاً لبرجسون في نهاية استعراض فلسفي: البرجسونية (١٩٢٩) ولعلم النفس الرسمي. وفي نقد أسس علم النفس (١٩٢٨)، فنَّد السلوكية والاستبطان والتحليل النفسي على حد سواء، ودعا إلى دراسة "الدراما البشرية"، أي إلى دراسة سلوك الأفراد العيني. وفي عام ١٩٤٦- أي بعد وفاته- صدر له كتاب بعنوان "المباديء الأولية للفلسفة"، وكذلك صدر له عام ١٩٤٧- أي بعد وفاته أيضاً- كتاب آخر بعنوان "الثورة والثورة المضادة في القرن العشرين"، ويكشف الكتابان - إلى حد ما- عن ضحالة فكره الناجم على الأرجح عن الضغوط التي كان يمارسها عليه التزامه النضالي السياسي ورغبته في أن يجعل الماركسية في متناول أكبر عدد ممكن من الناس. ومع أنه يستحيل علينا الجزم بصدد المنحى الذي كان سيأخذه تطوره الفكري، يحق لنا الافتراض أنه كان سيساهم مساهمة فعّالة في تطوير الفكر الماركسي على نحو ما فرضته أزمة الستالينية بعد الحرب.

[انظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة - بيروت، طبعة ثانية، ١٩٩٧، ص ٢١٠.]

(١) د. فؤاد زكريا، تقديمه للترجمة العربية التي قام بها لكتاب أيكن (هنرى د.)، عصر الأيديولوجية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٨.

مكتبة الفكر الجديد

بـ"العقائدية"، بل يفضل ترجمته إلى "أيديولوجية" مبرراً ذلك بقوله: "إن لفظ «أيديولوجية» ينطوي على معاني معقدة لا يمكن أن يعبر عنها لفظ 'العقائدية' بأية حال. وإذا كان هذا الأخير يمكن - تجاوزاً - أن يُعَد تعبيراً عن الناحية التي يُعَد فيها اللفظ دالاً على مجموعة من الأفكار والمواقف الأساسية للإنسان، فإنه لا يمكن أن يُعَد معبراً عن الوجه الآخر الذي يُعَد فيه اللفظ دالاً على «انعكاس» لأوضاع وظروف تؤثر في الفكر الظاهري وتكون أهم وأسبق منه. وهكذا يستحق اللفظ" - كما يقول د. فؤاد زكريا - "أن يدخل على اللغة العربية بصورته الأجنبية دون تغيير".

إذا كانت التعريفات السابقة فيها بعض التعقيدات، كان من الأسهل، بل الأوضح، أن ننظر إلى التعريف المختصر الذي جاء في مستهل المقالة الطويلة في دائرة المعارف البريطانية، وهو على النحو الآتي:

"الأيديولوجيا هي شكل من أشكال الفلسفة السياسية أو الإجتماعية، تظهر فيها العناصر التطبيقية بالأهمية نفسها التي تظهر فيها العناصر النظرية؛ فهي إذن منظومة فكرية تدعو إلى تفسير الدنيا وإلى تغييرها في آن واحد".

المهم في هذا كله، أن مفهوم الأيديولوجيا له تاريخ طويل في

مكتبة الفكر الجديد

الفكر الماركسي يتراوح بين المعاني المستهجنة والمعاني التي يمكن أن نسميها "محايدة"، كما يجب أن نلاحظ أن دلالاته الماركسية المختلفة قد تناولها المفكرون غير الماركسيين بالنقد والتحليل المرة تلو المرة، حتى أصبحت هذه الكلمة بمثابة مفهوم غير محدّد المعالم مثله في ذلك مثل تلك المفهومات "المُلَغَّمة" في وقتنا هذا، من "سلام" و"ثورة فكرية" و"ديمقراطية" وما إلى ذلك. فالماركسية ترى أن الأيديولوجيات كلها طبقية، وبالتالي فهي قناع يخفي حقيقة الاستغلال الطبقي؛ فكل أيديولوجية هي تبرير لاستغلال طبقة لأخرى، أو لاستمرار طبقة في وضعها السائد.

لقد استخدم ماركس الأيديولوجيا بمعنى الوعي الزائف، فالأيديولوجيا هي تشويه الحقائق وتزييفها بقصد تبرير موقف الطبقة الحاكمة، وقد أطلق عليها "ماركس" عبارة "الوعي الزائف". وكان أساس هذا التعبير النقدي لـ"الأيديولوجيا"، الرغبة في تفنيد نظرية "هيجل" المثالية التي ترى أن البشر ماهم إلا أدوات في أيدي التاريخ، يقومون بأدوار عُهِدَت إليهم من قِبَل قوى مستعصية على الإدراك. والفيلسوف وحده - في رأي "هيجل" - هو القادر على أن يفهم وقائع العالَـم على حقيقتها[1]. وإن كان من الضروري توضيح أن ها.ا

(١) د. أمل مبروك، الأسطورة والأيديولوجيا، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٦٧.

مكتبة الفكر الجديد

ليس معناه أن كل وعي زائف أيديولوجيا، إذ من الممكن أن يكون له أكثر من سبب من الأسباب كنقص المعلومات أو عدم القدرة على الملاحظة الكافية للحكم على الظاهرة. ولكن الأيديولوجيا هي الوعى الزائف الناتج من التكوين الطبقى للمجتمع، والذي يؤدي إلى ستر التناقضات الطبقية وبالتالي يساعد على إمكانية استمرار وضع الاستغلال، ولا يتم ذلك بشكل واع، أي ليس من تدبير بعض الأشخاص بغرض تبرير أوضاع طبقية معينة في الأساس، وإن كان من الممكن أن يحدث ذلك في مراحل متقدمة في المجتمع الطبقي. وعلى هذا فإن التشويه الأيديولوجي يمكن أن يتسلل إلى كافة أوجه النشاط المعرفي التي تنتج من التقسيم الطبقى أو تتأثر به، ويتعين علينا أن نقول إن أشكال المعرفة هذه ليست كلها أيديولوجيا، بل يمكن أن نجد ضمنها نظريات وأفكاراً علمية. إلا أنه في نصوص أخرى اعتبر الأيديولوجيا هي مكونات البناء الفوقي، وهذا يعطيها معنى مختلفاً إذ يساوي بين البناء الفوقي والأيديولوجيا مما يجعلنا نعتقد أن كل البناء الفوقى هو وعي زائف، وهذا يتناقض مع الفهم الأول الذي يمكن استنتاجه من أغلب كتابات ماركس، ولاسيما في الفترة الأخيرة من حياته إذ إنه على سبيل المثال يرى في علم الاقتصاد السياسي

مكتبة الفكر الجديد

البرجوازي جوانب علمية، وجوانب أخرى أيديولوجية[١].

ويرى ماركس أن دور العلم هو كشف التشويه الأيديولوجي وليس القضاء عليه، لأن القضاء عليه يقتضي تغيير الواقع، وكما يقول فإن الإنسان لا يستطيع أن يحل في فكره التناقضات التي لا يمكنه حلها في الواقع. وقد اعتبر اكتشافاته في مجالات الفلسفة والاقتصاد ونظريته في التاريخ علماً يكشف التناقضات في المجتمع الرأسمالي، وأنه يتعين بناء على هذا العلم العمل على القضاء على المجتمع الطبقي، وبالتالي القضاء على التناقضات التي تؤدي إلى ظهور الأيديولوجيا، وهكذا تكون نهاية الأيديولوجيا. وبعد ماركس ظهر لينين وكان مفهومه للأيديولوجيا هو نقيض مفهوم ماركس لها، ففي الوقت الذي أعطاها فيه ماركس معنى معرفياً سلبياً فإن لينين اعتبر الأيديولوجيا هي مجموع أشكال المعرفة والنظريات التي تنتجها طبقة معينة للتعبير عن مصالحها وبالتالي فكما أن هناك أيديولوجية برجوازية فإن هناك أيضاً أيديولوجيا بروليتارية، وبذلك ارتبطت الأيديولوجيا بالطبقة بصرف النظر عن تقييمها المعرفي[٢].

---

(١) د. على مختار، إشكالية العلاقة بين الأيديولوجيا والعلوم الإجتماعية، من أوراق ندوة بعنوان: "إشكالية العلوم الإجتماعية في الوطن العربي"، إشراف د. أحمد خليفة، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة، ١٩٨٤، ص ١٣٢ – ٣

(٢) المرجع السابق، ص ص ١٣٣ – ٤.

مكتبة الفكر الجديد

وفي مقدمة من عرضوا للمفهوم الماركسي للأيديولوجيا كارل مانهايم[١] (Mannheim)، الذي كان من أقطاب علم الاجتماع في

(١) كارل مانهايم Karl Mannheim (١٨٩٣ - ١٩٤٧) هو من مؤسسي "علم اجتماع المعرفة" وقد نهل من أربعة مصادر فلسفية هي: الكنطية الجديدة، والماركسية، والفينولوجية وأخيراً علم النفس الجشطلتي. يتميز مانهايم عن غيره من الكتاب المعاصرين المتشائمين الذين يقولون بأن الحضارة الغربية قد قاربت دور الفناء، فقد حلل تحليلاً علمياً وحيادياً التيارات الإجتماعية التي تكمن وراء الانقلابات والتغيرات الإجتماعية.
درس "كارل مانهايم" المفاهيم المختلفة التي تضمنتها المذاهب السياسية للتاريخ في علاقاتها بالمراكز الإجتماعية التي كانت تشغلها الفئات الإجتماعية - والتي كانت في الواقع عبارة عن محرك لتلك المذاهب المختلفة. فتوصل إلى القول بأن تلك المفاهيم المختلفة في التاريخ كانت تؤلف قسماً من المدن الخيالية - أو - الأحلام الذهبية أو الطوباوية التي كانت تتطلع إليها بعض الفئات الإجتماعية.
ويحدد "مانهايم" الفئات الإجتماعية تحديداً مرناً بحيث إنها تشمل الفئات الحرفية والعلمية والدينية والطبقية ولا يلزم نفسه بالمفهوم الاشتراكي للطبقة - وبالرغم من أهمية الوضعية الإجتماعية في معرفة الدوافع الكامنة وراء الأفكار ووجوه النظر المختلفة إلا أنه يحذّر من المغالاة والمبالغة في أثر الوضعية في الإنتاج الفكري، ويؤكد بأن البحوث التجريبية وحدها هي التي تقرر نوع الصلة بين العوامل الإجتماعية والفكر. ولا يعني بهذه - الصلة - وجود علاقة ميكانيكية كالعلاقة بين السبب والنتيجة - ولكنه يقول بأن الفكر مرتبط بالوضعية الإجتماعية ذات الحيوية والفاعلية، فحين تتبدل الوضعية تتغير أنظمة التفكير معها - فالأفكار والآراء والطاقات النفسية تتصل، وتنتقل، وتتحول باتصال وتحول القوى الإجتماعية، أي أن الصلة وشيجة بين أنظمة التفكير والتكوين الإجتماعي. وقد عرف "مانهايم" الصلة بين الآراء والأفكار والوضعية الإجتماعية بأنها صلة "انسجام" أكثر من كونها صلة تقريرية - أو - حتمية. ومما لا شك فيه أن المعرفة تتصل بالمجتمع وليس العكس، إلا أن هذه الصلة أو هذا الأثر يختلف من حيث الشدة والضعف تبعاً لاختلاف الظروف والأحوال، ولم يستثن "مانهايم" القول بأن هذه الصلة أو العلاقة تصل درجة الحتمية المطلقة، وحاول "مانهايم" أن يُعطي كلمة "صلة"

مكتبة الفكر الجديد

ألمانيا الذين تأثروا بنظريات المفكر الألماني ماكس ڤيبر[١]. فكان

معنىً تجريبياً. ومن الضروري معرفة الصلة بين الرأي والوضعية.
اقترح "مانهايم" منهجاً للبحث يتضمن ثلاث خطوات هي:
البدء بالإنتاج الفكري المستقل لنبني نظاماً كاملاً تنسجم فيه العناصر المختلفة.
المقارنة بين ذلك الإنتاج الفكري والأنواع الأخرى المعارضة.
وأخيراً "العزو" أي إرجاع الآراء والأفكار إلى أصولها الإجتماعية.
وبذلك ربط "مانهايم" بين وضعية الحياة والإنتاج الفكري، واعتبر منهج الاستقصاء التجريبي الطريق الوحيد لدراسة تلك العلاقة، وبما أن هذه العلاقة تتضمن عوامل بشرية، فلا يمكن الاكتفاء بمعرفة مظاهرها الخارجية، كما لا يمكن الاعتماد على الدراسات الإحصائية في فهم طبيعة تلك العلاقة، فللرأي وظيفة عملية إلى جانب وظيفته النظرية.
يعتقد "مانهايم" بأن ظهور الأفكار وبلورتها يتأثران إلى حدٍ بعيد بالعوامل الإجتماعية. ولا يقتصر تأثير تلك العوامل على أشكال الفكر ونماذجه، وإنما محتواه، ومضمونه، وبنيته، بالإضافة إلى أنها تحدد مجال خبراتنا وملاحظاتنا. ومن المسلم به أن معرفتنا مرتبطة بأشياء منظورة بادية للعيان، فإننا حين نفكر، نفكر من وجهة نظر مصالح الجماعة التي ننتمي إليها.
[انظر: د. عبد الجليل الطاهر، مقدمة ترجمته لكتاب: مانهايم (كارل)، الأيديولوجية والطوبائية – مقدمة في علم اجتماع المعرفة، مطبعة الإرشاد – بغداد، ١٩٦٨، ص ١٠ – ١١.]

(١) ماكس ڤيبر Max Weber عالم الاجتماع الألماني ترك بصماته على أهم العلوم الإنسانية وما زالت أعماله مرجعية مهمة للمهتمين والدارسين. وُلِدَ في الحادي والعشرين من أبريل عام ١٨٦٤ بمدينة "إيرفورت" (ولاية تورينجن)، وتوفي في الرابع عشر من يونيه عام ١٩٢٠ بمدينة "ميونيخ" عن عمر يناهز ٥٦ عاما متأثرا بمرض الالتهاب الرئوي، خلّف وراءه إرثاً يعتبر من أهم ركائز علم الاجتماع. ترعرع في عائلة محافظة. وبعد أن أنهي دراسته، التحق بجامعات عديدة في برلين وهايدلبرج ودرس علوم الحقوق والفلسفة والتاريخ والاقتصاد القومي. وعند بلوغه سن الثلاثين دُعي ڤيبر للعمل كأستاذ في كلية الاقتصاد القومي في جامعة فرايبورغ (جنوب ألمانيا). وبعد ذلك، انتقل إلى جامعة هايدلبرج. ولكنه بعد انتقاله إلى هذه الجامعة العريقة، أصيب بمرض نفسي أجبره على مزاولة عمله على مدى سبع

مكتبة الفكر الجديد

سنوات بشكل متقطع. وكان عام ١٩٠٤ بمثابة ولادة جيدة لـ"ڤيبر"، فقد بدأ من جديد بنشر أعمال ذات أهمية كبيرة في مجال علوم الاجتماع والفلسفة والاقتصاد. وفي عام ١٩٠٩ شارك ڤيبر في تأسيس الجمعية الألمانية لعلوم الاجتماع. ومن ثم بدأ ڤيبر عام ١٩١٣ بكتابة أحد أهم أعماله وهو "الاقتصاد والمجتمع" والذي نُشِرَ لأول مرة عام ١٩٢٢، أي بعد وفاته. وبدأت تظهر اهتمامات ڤيبر بالأمور السياسية الراهنة عام ١٩١٥. هذا ويُعَد ڤيبر أحد المؤسسين للحزب الديمقراطي الألماني عام ١٩١٩. وفي العام نفسه كتب عملين مهمين هما "العلم كمهنة" و" السياسة كمهنة".

ما زالت مدرسته وأفكاره تلاقي اهتماماً متزايداً بين علماء معاصرين يحاولون تفسير مستجدات الساحة الإجتماعية واستكشافها من جديد. تمحورت اهتمامات ڤيبر حول نشأة المجتمعات الصناعية وظهور الرأسمالية كأسلوب إنتاج جديد. وفي حين ركّز مواطنه "كارل ماركس" على العوامل الاقتصادية في ظهور الرأسمالية، أعطى ڤيبر أهمية كبيرة للمعتقدات الدينية والقيم في نشوء وظهور هذا النظام الاقتصادي.

صحيح أن ڤيبر ألّف أعمالاً كثيرة، ولكن أبرز هذه الأعمال وأكثرها تأثيراً في الفكر الإجتماعي كان كتاب "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" وبحسب المؤرخين، فإن هذا الكتاب كان قراءة لدور القيم الدينية في ظهور قيم وأخلاق العمل في المجتمعات الصناعية الجديدة التي كانت أساس ظهور النظام الرأسمالي. وتأتي أهمية دراسات وأطروحات ڤيبر من اهتمامه المنقطع النظير بفلسفة العلوم الإجتماعية ومناهجها. وفي هذا الخصوص، استطاع ڤيبر تطوير المفاهيم والجوانب التي أصبحت بعد وفاته من ركائز علم الاجتماع الحديث. ومن أهم المصطلحات التي أثرى بها علم الاجتماع وتعتبر جزءاً مهماً منه ومرجعاً كبيراً للمهتمين بهذا العلم الإنساني هي "العقلانية" و"الكاريزما" و"الفهم" و"أخلاق العمل". وفي عام ١٩١٩ رافق ڤيبر الوفد الألماني إلى باريس لحضور مؤتمر فرساي الذي وضع حداً للحرب العالمية الأولى. وبعد أن تبين لمستشار الوفد الألماني أن الحلفاء حسب المؤرخين لا يرمون من خلال المؤتمر إلى إحلال السلام، بل إلى استغلال ألمانيا وإذلالها، بعد ذلك غادر المؤتمر احتجاجاً على ذلك.

http://www.dw-world.de/dw/article/0,2144,2020173,00.html

مكتبة الفكر الجديد

اعتراض مانهايم على نظرية الماركسيين أنها لا تميز بين الأيديولوجيا الخاصة بالفرد، التي ترى أن كل الأفكار التي تختلف عنها مجرد أوهام أو أباطيل، والأيديولوجيا "الشاملة" الخاصة بزمن ما أو جماعة ما؛ وهذا هو المعنى الذي يدخل في مفهوم روح العصر. على أن النوعين من الأيديولوجيا يشتركان - في رأيه - في كونهما رهن الظروف الإجتماعية لكل فرد ولكل جماعة، الأمر الذي يجعل من الصعب تحديد مضمون الأيديولوجيا في وقت معين من الزمن. والتفرقة الأخرى التي أجراها مانهايم هي بين الأيديولوجيا واليوتوبيا (أو مفهوم المجتمع المثالي). فالأيديولوجيا - حسب تعريفه - نظام فكري يمكن أن يتعايش مع الحالة الراهنة في المجتمع. أما اليوتوبيا فهي دائماً في معارضة واضحة للحالة الراهنة[1].

وفي عام ١٩٣٦ ظهر كتاب "الأيديولوجيا واليوتوبيا" لكارل مانهايم، ويُعدّ هذا الكتاب علامة فارقة في مجال بحثنا. يفرق مانهايم بين العلوم الطبيعية وأشكال المعرفة الإنسانية الأخرى، وينظر إلي العلوم الطبيعية بوصفها علوماً دقيقة محكمة لا تتأثر من حيث محتواها المعرفي بالظروف الحضارية والإجتماعية، أي ليس للزمان أو المكان دور في المحتوى المعرفي للعلوم الطبيعية. في حين أن

(١) د. مجدي وهبة، أية أيديولوجيا؟ ، مجلة فصول، المجلد الخامس، العدد الرابع، ١٩٨٥، ص ٣٥.

مكتبة الفكر الجديد

باقي أشكال المعرفة يتأثر محتواه المعرفي بالظروف والأوضاع الحضارية والإجتماعية فضلاً عن تأثير هذه العوامل على النشأة والنمو، ومن هذه النقطة الأخيرة فإن العلوم الطبيعية لا تختلف عن باقي أشكال المعرفة[١].

ولعل "كارل مانهايم" هو أول من تجاوز المفهوم الذي طرحه ماركس للأيديولوجية،عندما تحدث ماركس عن الأيديولوجيا كقناع للطبقة السائدة، حيث اعتقد "مانهايم" بأن التناقض بين الفكر والمعرفة وبين الأوضاع الإجتماعية التاريخية ليس محصوراً في طبقة بذاتها، ولا في مرحلة من مراحل التاريخ المختلفة، إنما يتعدي ذلك إلى الجماعات الإنسانية برمتها، مما أثار- من جديد - البعد النسبي للمعرفة متجلياً بأيديولوجية الفرد، بعد أن كان ذلك محصوراً بأيديولوجية الجماعات. وفي هذا السياق نستطيع أن نلج إلى الإشكالية الإبستمولوجية للأيديولوجية كما طرحها "كارل مانهايم" وهنا نأتي إلى تعريفه للمفهوم. يعترف "كارل مانهايم" بأن لفظة الأيديولوجية ترتبط في معظم أذهان الناس بالماركسية وتتحدد ردود فعلهم تجاهها إلى حد كبير بهذا الارتباط. ورغم أنه يقر بأن الماركسية قد ساهمت بالعرض الأصلي للمشكلة، ويقصد في هذا

(١) د. علي مختار، إشكالية العلاقة بين الأيديولوجيا والعلوم الإجتماعية، ص ١٣٩.

مكتبة الفكر الجديد

المجال الأيديولوجية كقناع، فإنه يذكر بأن الكلمة ومعانيها أبعد غوراً في التاريخ المعرفي من الماركسية، وأنها منذ الماركسية قد أخذت مفاهيم وأشكالاً وأطباعاً مختلفة عما عرفته في الماركسية،مفضلاً التمييز بين لفظة الأيديولوجية بالمعنى الجزئي وبين معناها الكلي. فالمعنى الجزئي يكون هو المقصود ضمناً عندما تدل الكلمة على أننا نتخذ موقفاً متشككاً تجاه الأفكار والتصورات التي يتقدم بها خصمنا، إذ نعتبرها تمويهات واعية بدرجات مختلفة لإخفاء الوضع الحقيقي، وهي تحريفات تتراوح ما بين الخداع المتعمد للآخرين أو خداع النفس، إلى التمويهات شبه المقصودة فالأكاذيب المقصودة[1].

إن التمييز بين الأنصار والخصوم، بين الأصدقاء والأعداء، أي آلية تمجيد الذات وإضفاء صبغة مثالية على الأنا والنحن، وفي الوقت نفسه الحط من قيمة الآخر وإضفاء صبغة شيطانية عليه. هذه الآلية الثنائية، التي تنسب الخير كله والفضل كله للذات، والشر كله والسوء كله للغير، آلية دارجة في كل الأيديولوجيات إن لم تكن هي العمود الفقري للتفكير الأيديولوجي. وسواء تعلق الأمر بأيديولوجيات ذات صبغة دينية أو أيديولوجيات علمانية، وسواء تعلق الأمر بأيديولوجيات ثقافية أو بأيديولوجيات سياسية، وسواء تعلق الأمر

(١) انظر: مانهايم (كارل)، الأيديولوجيا والطوبائية، ترجمة د. عبد الجليل الطاهر، مطبعة الإرشاد بغداد، ١٩٦٨.

مكتبة الفكر الجديد

بأيديولوجيات كبرى أو بأيديولوجيات مشتقة، فإن هناك دوماً في كل من هذه الأيديولوجيات ميلاً إلى إضفاء صبغة مثالية على الذات وإلى إضفاء صبغة شيطانية على الآخر[١].

والأيديولوجية بهذا المعنى (أي بوصفها إطاراً عقائدياً يتضمن برنامج عمل) هي الفكرة التي رفضها الليبراليون؛ وهو المعنى الذي جعلهم يستخدمون الكلمة للازدراء والتحقير، ولكن يجب أن نعترف بأن هناك حاجة فعلية للأيديولوجية، بمعنى "المشاركة في أُطُر عقائدية تعطي حياتنا معنى وهدفاً، وتجعلنا نحس بالانتماء إلى ثقافة معينة". ومن المنطقي أن أي عمل أو هدف أو تصور سياسي إنما ينبع من هذا الإطار العقائدي، ويكتسب قوته وفاعليته من خلاله. وفي هذا الصدد تؤكد مدرسة فرانكفورت، وتسوق على ذلك الحجج والدلائل، أن أي التزام أيديولوجي يحمل في طياته - سراً أو جهاراً - إيماناً بشرعية بعض المؤسسات والممارسات الإجتماعية، وإيماناً بنظام علاقات القوى التي تضمن لهذه المؤسسات استمرارها. فنجد مثلاً (هابرماس) وغيره يؤكدون، أن الأيديولوجية هي صورة للعالَم تهدف إلى تثبيت السيطرة أو السلطة، وإضفاء الشرعية عليها[٢].

---

(١) د. محمد سبيلا، الأيديولوجيا كأساس للمشروعية السياسية:
http://www.iraqiforum.net/vb/showthread.php?t166

(2) Christopher Butler, Interpretaion, Deconstruction and Ideology, Clarinton Press. Oxford 1984, pp. 94 – 120.

مكتبة الفكر الجديد

ومن المفيد في هذا السياق أن نُذكِّر أنفسنا في البداية ببعض الملامح الواضحة، التي قد تبدو بديهية للبعض، والتي تميز بعض المواقف الأيديولوجية المُعلَنة، مثل الكاثوليكية أو الماركسية أو الليبرالية - الديمقراطية. إن هذه الأيديولوجيات تحاول جميعها - بدرجات متفاوتة من القهر - فرض نفسها على العالم؛ فهي أيديولوجيات متصارعة. هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد تعمل العقائد الأيديولوجية لتثبيت أوضاع غير مقبولة (كأن تسبغ الشرعية مثلاً على قهر مجموعة قهراً ظالماً لمجموعة أخرى)، أو قد يعتنقها بعض الناس بدوافع سيئة أو غير مُعلَنة؛ أي أن العقائد الأيديولوجية يمكن أن تنشأ بطريقة خاطئة. فمثلاً قد أعتنق آراء تنبع من الطبقة التي أنتمي إليها وتعبر عن مصالحها، وعلى هذا تكون هذه الآراء خاطئة؛ لأنها لم تأخذ في الحسبان مصالح الآخرين. وفي هذه الحالة تصبح المشكلة هي طبيعة هذه الآراء غير المرغوب فيها، وعدم صلاحيتها إذا نُوقشت من وجهة نظر أخرى، بدلاً من الظروف المسبِّبة التي دفعتني إلى اعتناقها[1].

وفي ستينيات القرن العشرين ظهر المفكر الماركسي الفرنسي ٣

ترجمة: نهاد صليحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٦٩.

(١) المرجع السابق، الموضع نفسه.

مكتبة الفكر الجديد

ألتوسير[١] الذي يُعَـد ممثلاً للاتجاه البنائي في الفكر الماركسي، وهو يرى أن الأيديولوجيا لا تعبر عن العلاقة بين الناس وظروف وجودهم، ولكنها تعبر عن الطريقة التي يعيشون بها العلاقة بينهم

(١) ألتوسير، لوي Althusser, Louis فيلسوف فرنسي وُلِدَ في الجزائر عام ١٩٢١ حصل على شهادة التبريز في الفلسفة وعلّم في دار المعلمين العليا. نشر في مطلع ١٩٦٦ كتاباً بعنوان مع ماركس، وأتبعه بسلسلة من الدراسات التي أجراها بعض تلامذته بإشرافه ونشرها في مجلدين بعنوان قراءة الرأسمال. وكان الهدف الذي سعي إليه هذان الكتابان تجديد تأويل الماركسية، وقد أثارا مناقشات وجدلاً واسعاً داخل الحزب الشيوعى الفرنسي وخارجه على حد سواء. ذلك أن ألتوسير انتمى إلى هذا الحزب منذ عهد المقاومة ضد الاحتلال النازي، كما أن التلاميذ الذين التفوا حوله أعضاء في الحزب نفسه، لكن العمل النظري الذي قاموا به أرادوه خارج الرقابة الأيديولوجية لقيادة الحزب. وقد افلح ألتوسير، إذ استغل مرحلة "ليبرالية" في الحزب ووجود تيارات متباينة في قيادته، في نشر مؤلفاته بصورة مستقلة وفي فرض نفسه كمحاور ممكن داخل حزبه بالذات. وقد تركت آراء ألتوسير النقدي الذي وقفته حركة مارس ١٩٦٨ من قيادة الحزب الشيوعى المتهمة بـ "التحريفية" لتخليها عن مبدأ دكتاتورية البروليتاريا، وهو موقف جديد يعتقد ألتوسير أنه من الصعب إيجاد تبرير نظري له في الماركسية وبالمقابل، فإن نقاد ألتوسير رموه بتهمة الستالينية. والواقع أنه بقدر ما يبدو ألتوسير مجدداً في المنهج يبدو "قويم العقيدة" في الآراء.

ومن المؤلفات التي أصدرها ألتوسير لاحقاً، قبل أن يصاب في مطلع الثمانينيات بنوبة جنون ويقتل زوجته، لينين والفلسفة (١٩٦٩) ورد على جون لويس (١٩٧٣)، عناصر لنقد ذاتي (١٩٧٤). وأخيراً، ومهما قيل في ألتوسير، فإنه يبقى في تاريخ الفكر الفرنسي والأوروبي ذاك الذي أثار من حول كتاباته عاصفة من الردود والردود المضادة لا تجد نظيراً لها إلا في العاصفة النظرية التي أثارتها الوجودية غداة الحرب العالمية الثانية وقد مات منتحراً عام ١٩٩٠.

[انظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة – بيروت، طبعة ثانية (ديسمبر) ١٩٩٧، ص ٨٨.]

مكتبة الفكر الجديد

وبين ظروف وجودهم وبالتالي لا يشترط أن يكون التعبير صحيحاً أو زائفاً أو مشوهاً، ولكنه خليط من كل ذلك، وأن لها وجوداً مادياً يتجسّد في مؤسسات وأجهزة أسماها أجهزة الدولة الأيديولوجية[1].

فليست الأيديولوجية معرفة خاطئة لأنها، قبل كل شيء، ليست معرفة ولأن وظيفتها العملية المجتمعية تفوق أهمية وظيفتها النظرية المعرفية. ثم إن العلم لا يعدو أن يكون ممارسة نظرية في حين أن الأيديولوجية تشكل مستوى من مستويات كل تشكيلة اجتماعية. هذا ما رمينا إليه عندما قلنا بأنها ليست عالماً وهمياً وإنما هي العالم الواقعي الذي يتحقق فيه الوهم. يقول ألتوسير: "في كل مجتمع يوجد نشاط اقتصادي في الأساس وتنظيم سياسي وأشكال أيديولوجية وبهذا تشكل الأيديولوجية جزءاً عضوياً في كل وحدة مجتمعية (...) ليست الأيديولوجية إذن ضلالاً، وليست شيئاً زائداً عرضياً بل هي بنية ضرورية للحياة التاريخية للمجتمعات. ومعنى ذلك أننا عند تحليلنا للواقع الإجتماعي يجب أن نأخذ في اعتبارنا الأيديولوجي كأحد مركبات هذا الواقع. فالأيديولوجية ليست شيئاً ينضاف إلى الواقع بل إنها من شروط العيش الضرورية. والتمثل الأيديولوجي له قيمته الفعلية فهو تمثّل فعال وليس ضرباً من الخيال يمكن إهماله. إن

(١) د. علي مختار، إشكالية العلاقة بين الأيديولوجيا والعلوم الإجتماعية، ص ١٣٨

مكتبة الفكر الجديد

الناس لا يعكسون في الأيديولوجية الواقع الإجتماعي وإنما الكيفية التي يحيون بها ذلك الواقع[١].

إذا كانت الأيديولوجية - كما أوضحنا - من المركبات الأساسية للمجتمع، وإذا كانت مستوى من مستويات كل تشكيلة اجتماعية، فإنها لم تعد، إذن، مجرد خطأ وضباب ينقشع إذا ما حل محله الصواب العلمي. لهذا فإن الأيديولوجية هي مستوى من مستويات التشكيلات الإجتماعية لا يمكن للعلم أن يقضي عليه. إن التمثل الأيديولوجي يخالف تمام الاختلاف التصور العلمي، فالتمثل الأيديولوجي يسعى إلى ملء الفراغ وتوحيد المتباين، بينما يبغي العلم معرفة الواقع الفعلي[٢].

لا يعني هذا أن العلم ترجمة للواقع ونسخة عنه كما يرى أصحاب المذهب الوضعي، يقول ألتوسير: "لم يعد العلم يعتبر كما لو كان مجرد تقرير لحقيقة عارية متجلية نصادفها أو نكشف عنها. بل إنه إنتاج للمعارف، إنتاج تحدده عناصر معقدة منها النظريات والتصورات والمناهج والعلاقات الداخلية المتعددة التي تربط مختلف هذه العناصر. فالعلم هو الممارسة النظرية المنتجة للمعارف وسيلتها في

(١) عبد السلام بن عبد العالي، الميتافيزيقا - العلم والأيديولوجية، دار الطليعة - بيروت، طبعة ثانية، ١٩٩٣، ص ٩٣ - ٦.
(٢) المرجع السابق، ص ٩٦-٩.

مكتبة الفكر الجديد

ذلك التصورات والمفاهيم. ومن يتحدث عن الإنتاج يذكر التحويل، تحويل الواقع المعطى وتغيير المباشر. بذلك يكون النموذج الذي يبنيه العلم مطابقاً لواقع مختبىء خلف الواقع الظاهر". فالمعرفة العلمية تتم عن طريق إنتاج موضوع يتميز عن المعطى المباشر والعلم يخاصم الواقع الطبيعي ليُنشىء واقعاً علمياً، إنه كما يقول باشلار[1]

(١) باشلار (جاستون) Bachelard (Gaston) (١٨٨٤ - ١٩٢٢) وُلِدَ في «باسير أوب» Bar-sur-Aub من أسرة متواضعة. ولم تتح له ظروفه العائلية إلا أن يتلقى قسطاً ضئيلاً من التعليم، مما اضطره إلى أن يعمل موظفاً صغيراً للبريد. وتُعَد قصة حياته كفاحاً مستمراً لهذا الشاب ذي الإرادة الحديدية،إذ استطاع أن يعلم نفسه بنفسه، وأن يرتفع في ميدان العلم والفلسفة بقواه الخاصة إلى أن أصبح آخر الأمر أستاذاً في السوربون وواحداً من أكبر فلاسفة العلم في القرن العشرين.
يقوم تفكير باشلار على أسس أو مباديء عامة عرضها بوضوح منذ كتابه الأول «بحث في المعرفة التقريبية» Essai sur la connaissance Approchée ثم زادها دقة وإحكاماً في كتاباته التالية. وأهم هذه المباديء أربعة:
أولاً: للخطأ، من الناحية النظرية، أولوية على الصواب، أو بعبارة أخرى فإن ما يأتي أولاً هو الخطأ، بحيث يستحيل وجود حقائق أولى، بل توجد أخطاء أولى فحسب. ومن خلال الصراع ضد هذه الأخطاء تنبثق الحقيقة بالتدريج.
ثانياً : والمبدأ الرئيسي الثاني في تفكير باشلار هو الإقلال من قدر الحدس في مجال العلم. وقد لخص موقفه من هذه المسألة في عبارة مشهورة هي: «أن الحدس يغدو أنفع ما يكون عندما يدفعنا إلى هدمه...»، وليس من الصعب ان نستنتج سبب هجومه على الحدس: ذلك لأنه لا يثق بكل ما يأتي إلينا بصورة مباشرة، ولا يؤمن بجدوى ما هو تلقائي، وإنما يتعين على العقل - في نظره - أن يعيد بناء كل المعطيات من جديد، وأن يقوم بعمل تركيب جديد لها، ويعاود الاهتداء إليها بوصفها نتائج، لا بوصفها مصادر آلية للمعرفة.
ثالثاً : وأما المبدأ الثالث، الذي يترتب على المبدأين السابقين، فهو أن الواقع نقطة نهاية الفكر ، وليس نقطة بدايته، وأن العقل الذي يفهم هذا الواقع ليس قدرة ثابتة، تمارس عملية المعرفة بصورة مطردة واحدة، بل إن العقل ذاته يتغير من خلال

مكتبة الفكر الجديد

يقاطع الطبيعة لكي يشيد التقنية[١].

فليس العلم هو الذي ينعت الماضي قبل - العلمي بأنه ماض أيديولوجي. إن المعرفة العلمية تكتفي بوصف ذلك الماضي بالضلال

الممارسة ويعاد تكوينه بصورة لا تنقطع.

رابعاً: والمبدأ الرابع والأخير يتعلق بالدور الذي يقوم به الخيال في المعرفة. ففي هذا الجهد الذي يبذله العقل لكي يقاوم الخطأ ويدخل مع الجهل في معركة مستمرة، يقوم الخيال والحلم بدور أساسي. ذلك لأن القدرة على الرفض إنما تنبع من قوة أصلية ذات طبيعة شاعرية، تمكن العقل من أن ينقد وينكر.

من أهم مؤلفاته:

- بحث في المعرفة التقريبية (١٩٢٨)

Essai sur la connaissance approchée approchée

- القيمة الاستقرائية للنسبية (١٩٢٩)

La Valeur inductive de la relativité

- الروح العلمية الجديدة (١٩٣٤)

La Novel esprit scientifique

- تكوين الروح العلمية (١٩٣٨)

La poétique de la reverie

- جدلية الديمومة (١٩٥١)

La dialectique de la durée

- النشاط العقلي في الفيزياء المعاصرة (١٩٥١)

L'activité nationaliste de la physique contemporaine

- المادية العقلية (١٩٥٣)

Le materialism nationnel

- تجربة المكان في الفيزياء المعاصرة

L'experience de l'espace dans la physique contemporaine

[انظر: د. فؤاد زكريا، معجم أعلام الفكر الإنساني، تصدير د. ابراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد الأول، ١٩٨٤، ص ٨٣٧ - ٤٢.]

(١) المرجع السابق، ص ٩٩- ١٠٠.

مكتبة الفكر الجديد

والخطأ. ولفضح هذا الماضي الخاطىء وكشف غلافه الأيديولوجي لابد من تدخل طرف ثالث بين العلم والأيديولوجيا، ذلك الطرف هو الممارسة الفلسفية. فهذه الممارسة هي التي تبين أن أخطاء الماضي كانت تمثلات أيديولوجية تدّعى الحقيقة، فعندما يتكون الفكر العلمي كعلم فإنه يكشف أن المعارف السابقة كانت معارف خاطئة لا أيديولوجية، والفلسفة هي التي تكشف عن هذه الأخطاء بوصفها أخطاء أيديولوجية، "ميتافيزيقية" عند كونت و"أيديولوجية" عند ماركس و"تحليلية" عند باشلار و"وضعية جديدة" عند ألتوسير. إن التفكير الفلسفي النقدي الذي ينصب حول حلول الفكر العلمي هو الذي يكشف العلاقات الجدلية لهذا الفكر مع الأيديولوجية وليس العلم ذاته. فالعلم يهدم الأخطاء الأيديولوجية دون أن يفكر فيها كحواجز إبستمولوجية. وهكذا فالتأمل الفلسفي هو نافذة ثالثة نستطيع من خلالها وحدها أن نميط اللثام عن العلاقات الجدلية بين العلمي والأيديولوجي[1].

ويرى ألتوسير أن العلم نقيض الأيديولوجيا وأن المعرفة تبدأ بالأيديولوجيا، ويتعين تخليصها منها وإحلال العلم محل الأيديولوجيا، وهو ما يسميه بالانقطاع المعرفي وهو في هذا يختلف

(١) المرجع السابق، ص ١٠٥.

مكتبة الفكر الجديد

مع كل من ماركس وجرامشي[١]، فمن زاوية ماركس لا يحل العلم محل الأيديولوجيا ولكنه يكشفها فقط، وإن تغير الواقع هو الذي يقضي عليها، ومن زاوية غرامشي فإن فكرة الانقطاع المعرفي تتناقض مع فكرة التحليل والتركيب السابق الإشارة إليها في تكوين الأيديولوجيا ومن ضمنها العلم[٢].

الأيديولوجية لا تقدم نفسها كأيديولوجية، والعلم لا يستطيع أن يكشف عن ماضيه كماض أيديولوجي، بل إنه كما قلنا يعجز عن التخلص من ذلك الماضي ما دامت الأيديولوجية تصاحبه. لذا لابد من تدخل الطرف الثالث الذي يقوم بوظيفة النقد. فكأن المصارع الحقيقي للأيديولوجية ليس هو العلم وكأن خصمها النظري الأساسي هو الفلسفة من حيث إن هذه تتدخل كفكر يستعمل الكشوف العلمية ليحارب الأوهام الأيديولوجية. "فعندما تكوَّن خلال القرنين السابع والثامن عشر فلك وفيزياء رياضية، ظهرت في ذاك الوقت ذاته أيديولوجية علمية تحلم بطبيعة تخضع خضوعاً مطلقاً للقوانين الرياضية، طبيعة تعطينا الرياضيات عنها صورة كاملة وتخضع

(١) جرامشي (انطونيو) Gramsci, Antonio (١٨٦١-١٩٣٧) سياسي وفيلسوف إيطالي، شغل منصب أمين عام الحزب الاشتراكي الإيطالي.

(٢) د. علي مختار، إشكالية العلاقة بين الأيديولوجيا والعلوم الإجتماعية، ص ١٣٨

مكتبة الفكر الجديد

لمبدأ رياضي هندسي ميكانيكي عند ديكارت وجبرى حسابى عند ليبنتس". ولكن تلك الفيزياء كانت، في الوقت ذاته، في حالة قطيعة مع الإشكالية الأيديولوجية الأرسطية فكانت الحاجة ماسة إلى تدخل فلسفي يفضح المفاهيم الأرسطية ويكشف بُعدها الأيديولوجي. ذلك كان هو التدخل الذي قام به ديكارت. كان على أبي الفلسفة الحديثة أن يقيم المفهوم الجديد للطبيعة وأن يمد العلم بما يحتاج إليه من تصورات جديدة. كان عليه أن يقوض صرح المفهوم الذي خلفته القرون الوسطى عن الطبيعة، ذلك المفهوم الذي كان يعتبر الطبيعة كلاً منظماً متناهياً متراتباً متفاضل الأجزاء يجسد تدرجه وتراتبه تدرج القيم والكمالات[١].

العلم عند فيرآبند[٢] إنما هو أيديولوجيا ضمن أيديولوجيات متعددة

(١) المرجع السابق، ص ص ١٠٥ - ٦.

(٢) وُلِدَ فيلسوف العلم كارل فيرآبند Paul Karl Feyerabend في الثالث عشر من يناير عام ١٩٢٤ بمدينة ڤيينا حيث التحق بالمدرسة الابتدائية وأكمل دراسته الثانوية. وفي مرحلة دراسته الثانوية انكب على القراءة، وقرأ الكثير من الكتب، وبالإضافة إلى حبه للقراءة أحب أيضاً المسرح theatre. وفي أبريل عام ١٩٤٢ خدم "فيرآبند" في الجيش الألماني كضابط في القطاع الشمالي من الجبهة الشرقية، وبلغ رتبة ملازم أول. وأثناء تقهقر الجيش الألماني أمام زحف الجيش الأحمر أصيب "فيرآبند" بثلاث رصاصات أصابت إحداها عموده الفقرى مما تسبب في عدم مقدرته على السير طيلة حياته إلا بمساعدة عصا. وقد عانى آلاماً شديدة نتيجة لهذه الإصابة، وقضى بقية فترة الحرب تحت العلاج كي يتعافي من إصابته.
وبعد انتهاء الحرب، التحق فيرآبند بعمل مؤقت في "ابولدا" Apolda وكتب أعمالاً للمسرح. ثم التحق بمعهد "فيمار" Weimar في ألمانيا حيث درس الإنتاج

مكتبة الفكر الجديد

العلم في رأي "فيرآبند" ينبغي ألا يتمتع بأية ميزة أو مكانة تجعله

المسرحي وتاريخ المسرح والغناء. وكان يمثل مثلما يفعل أصحاب فرقة بريخت، وبعد التمثيل اعتاد المشاهدون أن يناقشوا ما شاهدوه. ثم عاد إلى ڤيينا لدراسة التاريخ وعلم الاجتماع، لم يقنع بذلك وسرعان ما تحول إلى دراسة علم الفيزياء حيث التقى بعالِم الفيزياء فيلكس إهرنهافت Felix Ehrenhaft الذي أثرت تجاربه العلمية، فيما بعد، على آراء فيرآبند حول طبيعة العلم. ثم درس الفلسفة واشترك في تأسيس نادٍ للفلسفة تحت اسم "جماعة كرافت" نسبةً إلى "فيكتور كرافت" أحد أعضاء جماعة ڤيينا. وتقابل فيرآبند أيضاً مع الفيزيائي وفيلسوف العلم "فيليب فرانك" Philipp Frink . كما التقى مع الفيلسوفة الإنجليزية إليزابيث أنكومب E . Anscombe ، والتي كانت قد حضرت إلى ڤيينا لتتعلم الألمانية و يتسنى لها ترجمة مؤلفات ڤتجنشتين وتأثر بها، ودارت بينهما نقاشات وحوارات عميقة حول آراء وأفكار ڤتجنشتين ، وقد تأثر فيرآبند بفكرة ڤتجنشتين القائلة بأنه ينبغي أن تتغير مباديء معينة من عصر إلى عصر آخر، وأن هذه المباديء قد تختلف من حيث جوهرها.

وفي عام ١٩٤٨ حضر فيرآبند الحلقة النقاشية الصيفية الدولية لكلية المجتمع النمساوية والتي عقدت في Alpbach ، وهناك التقى لأول مرة بـ "كارل بوبر"، الذي تأثر به "فيرآبند" تأثراً بالغاً، إذ كان، في باديء الأمر، معجباً بكارل بوبر ومتحمساً له، غير أنه اتخذ موقفاً سلبياً فيما بعد تجاه مبدأ إمكانية التكذيب الذي كان يدعو له "بوبر".

رحل "فيرآبند" إلى بيركلي بالولايات المتحدة الأمريكية ليعمل أستاذاً بجامعة كاليفورنيا، واستقر به المقام هناك حتى تقاعد عن العمل عام ١٩٩٠ .

وتوفي فيرآبند في الحادي عشر من فبراير عام ١٩٩٤ بمنزله بمدينة "زيوريخ" Zurich نتيجةً لإصابته بورم في المخ.

ومن أهم أعمال فيرآبند:

-Against Method: Outline of an Anarchistic Theory of knowledge, 1975)

ضد المنهج: مخطط تمهيدي لنظرية فوضوية في المعرفة، ١٩٧٥.

Science in a Free Society, (1978).

العلم في مجتمع حر، ١٩٧٨.

Realism, Rationalism and Scientific Method: Philosophical Papers, Volume 1, (1981).

مكتبة الفكر الجديد

يتفوق على الأنشطة والفعاليات الفكرية الإنسانية المختلفة. من هنا نراه يدافع عن المجتمع ضد كل الأيديولوجيات، والعلم من بينها بل قل هو على رأسها[١]. وهو يرى أننا يجب ألا نتعامل مع هذه الأيديولوجيات باهتمام كبير أو نعطيها قدراً أو حجماً أكبر مما تستحق، بل ينبغي أن نقرأها كما تقرأ الحكايات الخيالية. فالعلم - في رأيه - ليس سوى أيديولوجية تمثل دوراً مشابهاً للدور الذي مثلته المسيحية في المجتمع الغربي لعدة قرون مضت، والتي نحتاج أن نتحرر منها الآن، ويدعى فيرآبند أن العلم الحديث ليست له من السمات ما يجعله أسمى من الشعوذة والتنجيم أو مختلفاً عنهما،

الواقعية والعقلانية والمنهج العلمي: أوراق فلسفية، المجلد الأول، ١٩٨١.

Problems of Empiricism: Philosophical Papers, Volume 2, (1981).

مشكلات النزعة التجريبية: أوراق فلسفية، المجلد الثاني، ١٩٨١.

Farewell to Reason, (1987).

وداعاً للعقل، ١٩٨٧.

Three Dialogues on Knowledge, (1991).

ثلاث محاورات في المعرفة،١٩٩١.

Killing Time: The Autobiography of Paul Feyerabend, (1995).

قتل الوقت، السيرة الذاتية لباول فيرآبند، ١٩٩٥.

Knowledge, Science and Relativism: Philosophical Papers, Volume 3, (1999).

المعرفة والعلم والنزعة النسبية: أوراق فلسفية، المجلد الثالث، ١٩٩٩.

[انظر: http: //en.wikipedia.org /wiki /Paul_Feyerabend

(١) د. محمد أحمد السيد ، مقدمة ترجمته لكتاب : فيرآبند (بول) ، ثلاث محاورات في المعرفة ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ص ٢٧.

مكتبة الفكر الجديد

ونجده في أحد كتبه[١] والذي صدر سنة ١٩٨٧ يحتفل "بوداع العقل" حيث يقصد بالعقل هنا حالة العقلانية المفترض أنها تتميز عن العلم، حيث يدافع أولئك الفلاسفة عن مكانتها المميزة[٢].

نعم لقد كان العلم في مقدمة الحرب ضد السلطوية وديكتاتورية التخلف والخرافة. ونحن ندين للعلم بتحرير الجنس البشري من نير الاستبداد وطغيان أصحاب الأفكار القديمة البالية. كما ندين له أيضاً بالحرية الفكرية المتزايدة، حتى أضحى العلم والتنوير صنوين أو اسمين لشيء واحد. غير أن هناك مفارقة محزنة في الأمر ينبهنا إليها فيرآبند. فنحن (يقصد بنحن هنا من يعيشون في المجتمعات الغربية الديمقراطية بالطبع) الآن نستطيع أن ننتقد ما نشاء وكيفما نشاء باستثناء العلم. إن "كروبتكن" Kropotkin ، على سبيل المثال، يريد التخلص من كافة المؤسسات التقليدية وكل أنواع الاعتقادات غير أنه يستثني العلم من ذلك. كما ينتقد "إبسن" Ibsen أهم أيديولوجيات القرن التاسع عشر ما عدا العلم. بل وحتى "ليفي شتراوس" Levi-Strauss الذي جعلنا ندرك أن الفكر الغربي ليس هو القمة المتفردة

(١) الإشارة هنا إلى كتاب فيرآبند: وداعاً للعقل . Farewell to Reason الذي صدر عام ١٩٨٧.

(٢) د. عادل عوض ، الإبستمولوجيا - بين نسبية فيرآبند وموضوعية شالمرز ، ص 194 - 5-.

بالإنجازات الإنسانية، كما كان الغرب يعتقد، استثنى العلم أيضاً من هذه النسبية الأيديولوجية[١].

يقدم فيرآبند ردين على الاعتراض القائل بالامتياز النسبي للعلم، فيقول:

"تنتشر إشاعات عديدة بالطبع بأن للعلم تأثيراً، بيد أننا عندما نفحص الأمر بتأن يتضح لنا أن الحجج التي قدمت تنقض ذلك، فالعلم لم يتفوق بسبب نتائجه، فنحن نعلم ما يؤديه العلم، لكن ليست لدينا أدنى فكرة عمّا إذا كان في مقدور تقاليد أخرى أن تؤدي أفضل منه بكثير أم لا، ولذا يتعين علينا أن نبحث عن ذلك" [٢].

يشتكي فيرآبند، من أن المدافعين عن العلم يحكمون في أغلب الأحيان بتفوقه على أشكال المعرفة الأخرى، دون أن يحاولوا معرفة هذه الأشكال على نحو دقيق. ويتفق معه شالمرز في هذه النقطة، فيلاحظ فيرآبند أن "النقاد العقلانيين" والمدافعين عن لاكاتوش درسوا العلم بشكل مفصل جداً، لكن موقفهم من الماركسية والتنجيم أو الميادين الفكرية الأخرى التي كانت تعد في التقليد السائد ميادين

(١) د. محمد أحمد السيد ، مقدمة ترجمته لكتاب : فيرآبند (بول)، ثلاث محاورات في المعرفة ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ص 27.

(٢) فيرآبند (بول) ، العلم في مجتمع حر ، ترجمة : السيد نفادي ، مراجعة : سمير حنا صادق ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2000 ، ص 121.

مكتبة الفكر الجديد

بدعية (هرطقية)، إن موقفهم من ذلك مختلف جداً، إذ يكتفون بفحص سطحي، وببراهين أنجزت على عجل. وقد يوضح فيرآبند نقده من خلال الأمثلة المشخصة[١].

ويرى فيرآبند أنه يتعين علينا أن ندع جميع التقاليد تتطور بحرية جنباً إلى جنب، وعلى أية حال فذلك المطلب - من وجهة نظره - شرط أساسي لمجتمع حر، ويؤكد أنه من الممكن تماماً أن تكشف مناظرة مفتوحة عن هذا التطور، وأن ما تقدمه بعض التقاليد أقل مما تقدمه تقاليد أخرى، ولا يعني هذا أنها ستمحى من الوجود - وإنما يعني أنها ستحيا وتحتفظ بحقوقها مادام هناك شعب يهتم بأمرها - إنه يعني فحسب أن منتجاتها (المادية، والثقافية، والوجدانية) إنما تلعب في الوقت الحاضر دوراً ضئيلاً نسبياً، حيث إن ما يستحسن مرة لا يستحسن دائماً؛ إن ما يعين تقاليد بعينها على النهوض في فترة ما لا يعينها في فترات أخرى ولسوف تستمر لهذا السبب - كما يقول فيرآبند - المناظرة المفتوحة، ويستمر معها فحص التقاليد المفضلة: إذ لا تتحقق هوية مجتمع على الإطلاق مع تقليد خصوصي واحد، وإنما الدولة والتقاليد دائماً ما يحتفظان بانفصالهما[٢].

(١) د. عادل عوض، الإبستمولوجيا - بين نسبية فيرآبند وموضوعية شالمرز، ص 195.
(٢) فيرآبند (بول)، العلم في مجتمع حر، ص 121.

مكتبة الفكر الجديد

ويذهب فيرآبند إلى أنه لا يمكن أن يتحقق انفصال الدولة والعلم (العقلانية)، الذي يعد جزءاً من الانفصال العام للدولة، عن طريق إجراء سياسي وحيد، ولا ينبغي أن يتحقق بهذه الطريقة؛ فالعديد من الناس - في رأي فيرآبند - لم يصلوا بعد إلى النضج الضروري للحياة في مجتمع حر (وينطبق هذا بخاصةٍ على العلماء والعقلانيين الآخرين)، إذ يتعين على الناس في مجتمع حر أن يبتوا في المسائل المتعلقة بشئونهم الأساسية كما يتعين عليهم أن يعرفوا كيف يتوصلون إلى المعلومة الضرورية، ويتعين عليهم كذلك أن يتفهموا مآرب التقاليد المباينة لتقاليدهم والدور الذي يلعبونه في حياة الأعضاء المنتمين إليهم، أما النضج الذي يتحدث عنه فيرآبند فلا يُعَـد فضيلة ثقافية، وإنما هو حساسية يمكن أن تُكْتَسب فقط بالتواصل المستمر مع وجهات نظر مخالفة، إنه لا يُعَلّم في المدارس، ومن العبث أن نتوقع - كما يقول فيرآبند - أن تجلب لنا "الدراسات الإجتماعية" الحكمة التي نرومها، ولكنها يمكن أن تُكْتَسب بالمشاركة في إبداعات المواطنين، وهذا هو السبب في التقدم البطيء والتآكل البطيء لسلطة العلم والمؤسسات المقدامة الأخرى التي تُعَد نتاجاً لهذه الإبداعات والتي تفضل لمقاييس أكثر تطرفاً: إن إبداعات المواطنين هي الأفضل أما المدرسة فهي فقط للمواطنين الذين يزخر بهم المجتمع الآن[1].

(١) المرجع السابق، ص 133 - 4 .

مكتبة الفكر الجديد

ويرى فيرآبند أن أية أيديولوجيا تحطم النظام الشمولي للفكر تساهم بذلك في تحرير الإنسان. كما أن أية أيديولوجيا تقود الإنسان إلى الشك في المعتقدات الموروثة تكون عوناً للتنوير. إن الحقيقة التي تسود دون اختبار وفحص ومقارنة تشبه الطاغية الذي يجب الإطاحة به، بل والكذب أو الزيف الذي قد يساعدنا في الإطاحة به لهو محل ترحيب عند فيرآبند. ولا عجب في هجوم فيرآبند على كل ما يجور على المساواة بين الثقافات في كافة المجالات، والمجتمع الحر في رأيه ليس هو المجتمع الذي يحاول فرض قيمه الثقافية على الثقافات الأخرى المستضعفة وإنما هو المجتمع الذي تكون فيه لكل التقاليد والثقافات حقوق متساوية بغض النظر عن تصور الثقافات الأخرى لها[١].

وإذا كنا نسلم بأن العلم الذي ساد في القرنين السابع عشر والثامن عشر كان بحق أداة للتنوير والتحرر، فمن غير الملزم أن العلم سيظل دائماً أداة للتحرر أو التنوير. فالعلم، شأنه في ذلك شأن أية أيديولوجيا أخرى، قد يؤدي إلى الخراب، والتدمير، ومن ثمَّ قد يتحول إلى ديانة غبية جاهلة، ويدعونا فيرآبند إلى النظر في مناهج العلم التي يتم تدريسها اليوم. "فحقائق" العلم يتم تلقينها في مرحلة مبكرة بنفس

(١) د. محمد أحمد السيد، مقدمة ترجمته لكتاب: فيرآبند (بول)، ثلاث محاورات في المعرفة، ص 27 – 8.

مكتبة الفكر الجديد

الطريقة التي كانت تلقن بها "حقائق" الدين منذ قرن مضى في أوروبا. ولا توجد محاولة لإيقاظ القدرات النقدية عند التلاميذ كي يستطيعوا أن يروا الأمور من منظور خاص بهم. والأمر في الجامعات يأخذ طابعاً أكثر تنظيماً ونمطية. ولا يزعم فيرآبند غياب النقد بالكامل، فالنقد موجود ولكن له حدود فأنت تستطيع أن تنتقد أموراً كثيرة من بينها النظام السياسي ومؤسسات المجتمع المختلفة، ولكن كما سبق وذكرنا، يستثنى من ذلك العلم[١].

وكما يؤكد فيرآبند - بجرأة يحسد عليها - ليس العلم نظاماً معرفياً مقدساً يستلزم الكفر بكل ما عداه أو خالفه، إنه نظام عقلاني وجب أن ينمو ويزدهر وسط الأنظمة المعرفية الأخرى، وعلى الرغم من أن العلم ليس البتة ديناً، فإننا نعامله من منطلق الإجلال الديني، من نظرة تقديسية تنظر إليه وكأنه كيان لا يدانيه إلا الحق المطلق والخير المطلق، بل أيضاً - ولا ينبغي أن نندهش - الجمال المطلق! فتمثيل العلم للجمال المطلق دعوى مرفوضة منذ فيثاغورث وحتى أبرزتها المدرسة الاصطلاحية التي تعامل النظرية العلمية بالمعايير الأستطيقية الجمالية، لكنه الجمال الذي لا يتذوقه إلا الذكاء العلمي بتعبير هنري بوانكاريه[٢].

(١) المرجع السابق، ص 28.

(٢) د. يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، الأصول - الحصاد -

وتقابل أقوال العلماء وتصريحاتهم في المجتمع، غالباً، بنفس التوقير والاحترام الذي كانت تلقاه أحكام رجال الدين والفقهاء منذ أمد ليس ببعيد. واليوم أصبح العلم يماثل في استبداده الأيديولوجيات التي جاء أصلاً ليحاربها ويخلصنا منها. ولكن ما السبب في هذه المعاملة الخاصة جداً التي يلقاها العلم على الرغم من كونه مجرد أيديولوجيا بين أيديولوجيات عديدة لا يتفوق عليها في شيء؟ يرى فيرآبند أن السبب يكمن في الاعتقاد (الخاطىء) بأن العلم ليس مجرد أيديولوجيا وإنما ينظر إليه بوصفه مقياساً "موضوعياً" للحكم على كافة الأيديولوجيات الأخرى، وهي فكرة مافتىء فيرآبند يكرر عدم صوابها في العديد من كتاباته. إذ لا يمتلك العلم منهجاً خاصاً به يضمن له النجاح أو حتى احتمال النجاح. والسبب الحقيقي في نجاح العلماء أحياناً في حل المشكلات لا يرجع إلى امتلاكهم عصا سحرية يطلق عليها مناهج البحث، أو نظرية محددة في العقلانية، وإنما يكمن سر نجاحهم في أنهم يدرسون المشكلات المطروحة أمامهم ويحيطون بتفاصيله إحاطة شاملة[1].

هذه النظرية التقديسية للعلم ازدادت جموداً وتحجراً على يد

الآفاق المستقبلية، عالم المعرفة، الكويت، العدد 264، 2000، ص 439.

(١) د. محمد أحمد السيد، مقدمة ترجمته لكتاب: فيرآبند (بول)، ثلاث محاورات في المعرفة، ص 29.

فلسفات العلم الوضعية الضد تاريخية، التي ترفع العلم فوق التاريخ. ثم أوتى فيرآبند الجرأة على هتك الحجاب المقدس الذي طالما اتشح به العلم الحديث، وكأنه ليس نشاطاً إنسانياً وليس واحداً من إنجازات حضارية عدة. ولم يكن هذا الهتك من أجل نفي العلم، كما تفعل الفلسفات الضد علمية كالرومانتيكية مثلاً، بل من أجل استبصار أعمق لمضامين العلم ووظائفه وحدوده وإطلاق الطاقات التقدمية فيه... إلى آخر هذه المهام التي لا يضطلع بها إلا فلاسفة العلم المحترفون، المخلصون له أكثر من سواهم[١].

وفي هذا الإطار ، كان فيرآبند شديد التحمس للنزعة النسبية أو بالأحرى النسباوية Relataivism في العلم. وكان عمل فيرآبند "ضد المنهج" ليقوض تصور المنهج العلمي الواحد الثابت دائماً. وإذا كانت المناهج ذاتها نسبية أو نسباوية، فلا غرو أن يؤكد فيرآبند على أن كل شيء في العلم نسباوي، مثلما أكد "توماس كون"على أن الأحكام العلمية نسباوية، أي بالنسبة للنموذج الإرشادي المعمول في إطاره [٢].

(١) د. يمنى طريف الخولي ، فلسفة العلم في القرن العشرين ، الأصول – الحصاد – الآفاق المستقبلية ، عالم المعرفة ، الكويت ، العدد 264 ، 2000 ، ص 439.
(٢) المرجع السابق ، ص 440.

مكتبة الفكر الجديد

الخاتـــمة

الحقيقة العلمية التي يطلبها المنهج العلمي ليست قابعة هنالك وعلينا أن نعثر عليها، بل هي أقرب إلى أن تكون مثالاً ينشده العلماء. فهي عند بوانكاريه العلاقات بين الأشياء التي يشترك في إدراكها جميع الكائنات المفكرة على أن تتيح الانسجام الكلي الشامل، وهو قيمة جمالية لا شك فيها. وكذلك عند أينشتين هي البساطة الجمالية التي ينشدها من يصوغ النظريات من العلماء لكي يفهم ما هو واقعي. وعند برونفسكي لا يمكن حتى ننتقل من الواقعة إلى القانون الذي يعتمد صدقه على الاتساق والتماسك المنظم بين الأجزاء التي تتناسب وتتوافق فيما بينها، كما هو الحال في رواية رائعة، أو في تناسق الألفاظ في الشعر، فالوحدة الداخلية والاتساق والتماسك في العلم هو الذي يتيح له الصدق، وهو الذي يجعله أفضل نظام للتنبؤ من أية لغة لم يتح لها جمال التنضيد. والوحدة والنظام هي التي تبعث في العلماء حس الجمال، فكل بحث علمي ينطوي على استخلاص

مكتبة الفكر الجديد

خيوط جوانب من العالَـم وضمها معاً في نسيج واحد منتظم، وكل قانون علمي إنما ينسق بين طائفة متفرقة مبعثرة من الواقع.

فالحقيقة الموضوعية إذن يمكن تعريفها بأنها ما يُقبل عادةً من المجموع، كما يقول رسل، تجنباً للمساجلات العقيمة التي تنشأ من النظر إلى عاطفة فردية على أنها مقياس الحقيقة. أو هي "أفضل" ما يفكر فيه زمان معين، كما يقول شيللر، ويرتبط هذا التعريف الأخير بتقدم المعرفة العلمية، ويتصل بمعاني القيمة والاختيار.

والحقيقة كما ينبغي أن نقررها بمقتضى مبدأ الموضوعية، قد صنعت شيئاً فشيئاً، بفضل الجهود المختلفة لعدد عظيم من المخترعين، كما يقول برجسون في حديثه عن البراجماتية، ولو لم يكن أولئك المخترعون موجودين، ووجد غيرهم مكانهم، لكان لدينا مجموعة من الحقائق (العلمية) تختلف كل الاختلاف عما لدينا اليوم. ولبقي الواقع كما هو أو يكاد، ولكن كانت تختلف المسالك التي نرسمها لمصلحة سيرنا فيه. ولسنا نستطيع أن نؤلف جملة واحدة دون أن نتقبل الافتراضات التي أبدعها أسلافنا، ولو آثرت الإنسانية في مجرى تطورها اتخاذ افتراضات من نوع آخر، لاختلفت قواعد تفكيرنا.

وعلى هذا النحو نتبين أن الموضوعية لم تعد انعكاساً لواقعة

مكتبة الفكر الجديد

أصلية يتطابق معها رجل العلم، بل هي شروط يلتزم بها، وأهم تلك الشروط كما يقول بوانكاريه أن يكون ما هو موضوعي مشتركاً بالنسبة لأذهان كثيرة، وبالتالي يمكن نقله من واحد لآخر. وما يمكن أن يكون مشتركاً وقابلاً للنقل ليست الإحساسات أو الموجودات المنعزلة الواحدة عن الأخرى، بل هو ما يمكن أن يصاغ في علاقات ونظريات. وما تستطيع النظرية أن تقدمه هو صورة لم يستوف صقلها ، وبالتالي فهي صورة مؤقتة وزائلة. ومن ثمَّ فمجال الاختيار مفتوح أمام العلماء ليستكملوا هذا الصقل والاقتراب من الحقيقة. وهنا تأتي الموضوعية مرتبطة ومشروطة بموقف معين، لأنه لابد من اشتراك الذين يصطنعون المنهج العلمي في نظام واحد، على أساس من وحدة جهازهم التصوري، ومن خلال ما توافر لهم من عالَـم مشترك للبحث والمناقشة، بحيث يصلون إلى النتائج نفسها، ويصفون كل ما ينحرف عن إجماعهم بأنه على خطأ. وهذه المشاركة ليست واقعاً مفروضاً، بل هي مساهمة إيجابية، والتزام صريح تبعث عليه قيم ومعايير.

ويخطىء من يعتقد أن العلماء أكثر موضوعية ممن سواهم من البشر. فالموضوعية ليست هي موضوعية العالِم أو تجرده كفرد بل العلم ذاته هو الذي يتجه نحو الموضوعية.

بناءً على ذلك، فإنه سيكون على الفلسفة أن تخضع العلوم التقنية

مكتبة الفكر الجديد

السائدة لتحليل نقدي؛ هذا التحليل يجب أن يتناول العلم كقوة توجه حياة الإنسان اليومية في مختلف الميادين. يجب ملاحقة هذه العلوم التقنية في كل أشكال حضورها الظاهرة والخفية في عالمنا الراهن. ولا يعني ذلك التشكيك في حقيقة النظريات العلمية، بل بيان أن الحقيقة العلمية ليست هي الحقيقة الأخيرة، وأن العلم ليس هو الكلمة الأخيرة في حياة الإنسان. كما أن هذه المتابعة النقدية لن تهدف إلى البحث عن حقيقة أصلية للأشياء، أو عن فردوس مفقود يجب استعادته، بل فقط إلى إدراك العلوم التقنية في حدودها، والتنبيه إلى المخاطر التي تنجم عن تحول هذه العلوم إلى غاية في ذاتها، بدل أن تكون مجرد وسيلة.

والفلسفة عندما تتخذ إزاء العلم موقفاً نقدياً، فإنها لا تقوم إلا بممارسة مهمتها الأصلية. فالفلسفة لا تقبل أية افتراضات أو مسبقات، بل تخضع كل شيء للنقد والتساؤل. عندما يتخذ الإنسان الموقف الفلسفي ينكشف العالَم في ضوء جديد، حيث تفقد البديهيات بداهتها، وتصبح القناعات الراسخة في حاجة إلى تأسيس، وتبدو الأشياء المألوفة في غرابتها. ولكي تكون الفلسفة وفية لمعناها الأصلي، يجب أن تتخذ هذا الموقف إزاء التوجه العلمي-التقني السائد في عالَم اليوم، أي يجب عليها أن تحطم هذه الألفة التي

مكتبة الفكر الجديد

أصبحت تربطنا به وتجعله يبدو وكما لو كان أمراً بديهياً، يجب عليها أن تجعله يبدو في غرابته.

إلا أن الفلسفة، لكي تكون قادرة على القيام بهذه المهمة، يجب عليها، هي ذاتها، أن تتحور من هذا التوجه العلمي- التقني الذي بدأ تأثيره يمتد إليها هي كذلك. وهكذا لم يعد غريباً أن نسمع داخل الفلسفة أصواتاً تعبر، بكيفية أو بأخرى، عن هذا التوجه. فهناك من يدعو مثلاً إلى أن الفلسفة يجب أن تقتصر على تتبع مختلف مجالات المعرفة العلمية وأن تتوزع هي ذاتها مثل العلوم إلى تخصصات جزئية ودقيقة. بل وأكثر من هذا، هناك من يرى أن الفلسفة يجب أن تتخلى عن مهمتها التقليدية في توجيه الحياة العملية الأخلاقية، بحجة أن الفلسفة، لكي تحافظ على "علميتها"، يجب أن تترك هذه المهمة للأيديولوجيات ورؤى العالم. ومما يثير الاستغراب أن ينتشر هذا التصور في هذا الوقت بالذات، حيث تتخذ سيطرة الإنسان على الطبيعة وعلى الإنسان أبعاداً مخيفة تطرح بكل إلحاح مهمة التفكير في قضايا التوجه الأخلاقي الفردي والجماعي.

إن الفلسفة لا يمكن أن تتعامل تعاملاً نقدياً مع التوجه العلمي- التقني إذا لم تتحرر منه. والفينومينولوجيا، بدعوتها للرجوع "إلى الأشياء ذاتها"، وبإحالتها إلى أشكال لتجربة العالَم والأشياء سابقة

مكتبة الفكر الجديد

على المعرفة العلمية ومختلفة عنها، تقدم مساهمة أساسية على هذا الطريق. ويجب ألا يقتصر النقد على المجال العلمي - التقني فحسب، بل لابد أن تكون عملية النقد كلية للحضارة الغربية.

ولكن لابد أن يواكب عملية النقد الكلية للحضارة الغربية، عملية أخرى هي عملية التخلص من الإحساس بمركزية الغرب ونزع صفة العالمية والعلمية والمطلقية عن حضارته وتوضيح أن كثيراً من "القوانين العلمية" التي يدافع عنها دعاة التغريب بوصفها تصلح لكل زمان ومكان هي في واقع الأمر نتيجة تطور تاريخي وحضاري محدد وثمرة تضافر ظروف فريدة في لحظة فريدة. فإذا كان الغرب قد تحول إلى مطلق، فإنه يجب أن يستعيد نسبيته، وإذا كان يشغل المركز فإنه يجب أن يصبح مرة أخرى عنصراً واحداً ضمن عناصر أخرى تكوِّن عالَـم الإنسان.

إن الغرب يجب أن يصبح مرةً أخرى "غربياً" لا "عالمياً" ويجب أن ندرك محليته وخصوصيته الحضارية والجغرافية، وأن ننفتح عليه، بطريقة نقدية إبداعية، تماماً مثل انفتاحنا على الحضارات الأخرى.

مكتبة الفكر الجديد

المحتويات

تمهيد..... ٥

العلم بين الحياد والتحيُّز..... ١٩

الموضوعية العلمية "عند كارل بوبر..... ٣٣

نقدها برماس للنموذج الوضعي للمعرفة..... ٤٧

العلم والتقنية..... ٦١

العلم والسياسة..... ٨١

العلم والأيديولوجيا..... ١٠١

الخاتـــمة..... ١٣٧

مكتبة الفكر الجديد

العلم والإيديولوجيا

بين الإطلاق والنسبية

راج الحديث عن حياد العلم وعدم انحيازه وكأنه يستهدف حقائق مطلقة مجردة ثابتة، وكأن العلم لا وطن له، وذهب أصحاب هذا الرأي إلى حد القول بأن الحقيقة العلمية تفرض نفسها على العقل في أي مكان أو زمان، بقوة البرهان والمنطق وحدها، أي أن هذه الحقيقة بطبيعتها عالمية، ولا مجال للتفرقة القائمة على أسس قومية. وإن الوصول إلى الحقيقة العلمية هو غاية البحث العلمي، وإن الحقيقة العلمية قوامها "الموضوعية".

علي الجانب الآخر يذهب بعض الباحثين إلى حد القول بـ"خرافة" الموضوعية، وبأن هذا الانضباط المنهجي الصارم، وتلك الشخصية العلمية المتجردة هما مجرد "نماذج مثالية" لا توجد إلا في كتب مناهج البحث فقط. فالباحث مهما زعم بأنه محايد وموضوعي لا يمكن أن ينكر أنه كإنسان مفكر يملك عالَماً خاصاً من المعاني والرموز، التي تجعله يرى العالَم الخارجي بعيون غير محايدة. فالباحث لا يستطيع أن يزعم أنه يستقبل الواقع على شاشة بيضاء نقية من أية أفكار أو معتقدات مسبقة.

إنه أول كتاب بالعربية يعالج هذا الموضوع المتعلق بما إذا كانت قضايا العلم نسبية أم مطلقة، وما إذا كانت أحكامه وقوانينه موضوعية أم مصبوغة بتحيُّزات خاصة وأيديولوجيات معينة.

مكتبة الفكر الجديد

ISBN 987-6589-09-948-0

9 786589 099482

الدار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - هاتف: ٠٠٩٦١١٤٧١٣٥٧ تلفاكس: ٠٠٩٦١١٤٧٥٩٠٥

www.dar-altanweer.com

info@dar-altanweer.com

توزيع دار الفارابي